مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الحَشْرِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الحشر

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الحشر

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

انطلقت سورة الحشر بإظهار وبيان تنزيه مخلوقات الله تبارك وتعالى لربها جَلَّ جلاله عن كل ما لا يليق بعظمته وعزته جَلَّ في علاه. فقال تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: سبح بالذكر والتنزيه لله رب العالمين جميع من في السماوات والأرض، ليشمل ذلك جميع المخاليق، من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع من خلقه. وكذلك الأرض وما خُلِق عليها وفيها، من الإنس والجن والدواب، والحيوانات، وما حوته من بحار ومحيطات وأنهار، وما بداخلها من أنواع الحوت والأسماك والأصداف. فلا شيء إلا وهو يسبح لله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من الملائكة والأناسي، والجان، والحيوان، حتى الجماد[١] وبهذا يشمل الكافر من الجان والناس، لأن دلالة التسبيح تشمل حتى الخضوع، فمن كفر من الجن والإنس، فهوا خاضع ذليل لله تعالى. ولذلك قال أهل العلم: أن من دلالات تسبيح الجمادات خضوعها لله تعالى[٢] وهذا من غزارة المعنى الذي أفاد قوة وقهر الله تعالى لكل شيء. فشمل التسبيح الخضوع والخنوع، بأنه تحت قبضة الله تعالى، كما هو التنزيه له عَزَّ وجل عن كل ما لا يليق به وبعظمته تبارك وتعالى.

وقد ذكر عَزَّ وجل في سورة الإسراء ما يبين تفاوت التسبيح بين المخلوقات، فكل له تسبيحه المناسب له، وأن كل شيء يسبح له عَزَّ وجل، ولكن لا يدرك الإنسان فهم تسبيح مخلوقاته جَلَّ شأنه، حيث قال تبارك

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩/٤-٣٠)

وتعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ فالسماوات السبع، والأرض تسبح وتنزه الله تعالى، بل وكل من في السماوات والأرض يسبح الله تعالى تنزيهاً وإجلالاً. وهو يجمع التسبيح بالتنزيه، والحمد والثناء الذي يتناسب مع حال وهيئة تلك المخلوقات، وتسخير الله تعالى لها. ولكنكم أيها الناس لا تفقهون وتفهمون تسبيح تلك المخلوقات، مما يفيد محدودية علم ومعرفة الإنسان، وقصور إدراكه، وأن عليه أن يتواضع ويعترف ويؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى، من غير منازعة، ولا تطاول على ما قَصُرَ علمه عنه، فيما ليس له به حق. وهذ الإخبار من الله تعالى عن عظيم ملكه، وطاعة خلقه له، ما يفيد ويقرر بأنكم أيها المشركون تُقَدِّمُون الطاعة لغيره عَزَّ وجل، ممن تزعمون زوراً وبهتاناً أنهم شركاء، فليس له شريك في ملكه، وكل شيء هو ملكه عَزَّ وجل، ويسبح وينقاد له. وبالتالي فإن خلائقه جميعاً طائعة له تبارك وتعالى، وزيادة عن الطاعة تسبح وتنزه الله رب العالمين عن كل نقص.

وقد خص سبحانه وتعالى أهل الأرض باسم موصول خاص بهم ﴿ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وأما فاتحة سورة الحشر، فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية، وهي خذلان بني النضير، فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم[1] بينما في سورة الحديد، وردت بدون الاسم الموصول ﴿ وَمَا ﴾ قال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ لإيراد الشمول من غير تخصيص. وفي سورة الحشر ورد العموم مع التخصيص. مما يدل على دقة البيان، وقوة توافقه مع مقاصده، ليظهر الإعجاز البياني كما هو الإعجاز في جميع خلقه وتدبيره سبحانه وتعالى.

ثم أعقب ذلك البيان إظهار كمال عزته وحكمته التي تستوجب تسبيحه عَزَّ في علاه من مخلوقاته، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل، وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. والصفة الثانية: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٩٢/١١)

ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما يفيد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه ولأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وقد أكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى هو العزيز الحكيم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو عَزَّ وجل العزيز لا غيره، وأنه هو المتصف بكمال العزة والحكمة. وقد حصر سبحانه وتعالى كمال العزة والحكمة له جَلَّ في علاه. إذ أفادت بُنية ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وحكمته. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع كتابه القرآن العظيم، وشرعه الحكيم. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

وبعد أن أوضح رب العالمين تمجيد وتنزيه جميع المخلوقات لربها جَلَّ جلاله، وبيان عزته وحكمته تبارك وتعالى، ينتقل البيان إلى إظهار عظيم قدرته بما كان منه عَزَّ وجل في هزيمة الذين كفروا من أهل الكتاب، بما ألقاه جَلَّ شأنه من الرعب في قلوبهم، ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على عدوهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ إن الله تبارك وتعالى هو وحده الذي أخرج أهل الكتاب الذين جحدوا نبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يهود بني النضير، حيث أخرجهم من ديارهم ومنازلهم، من غير قتال. حيث خرجوا خائفين ومرهوبين، ومرعوبين بما قذف الله تعالى في

قلوبهم من الرعب، الذي جعلهم يخرجون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، مطالبين الأمان والصلح، على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم، وذراريهم، وأن للرسول صلى الله عليه وسلم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويتركون ويَخْلُون لهم مساكنهم وسائر أموالهم. فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك. فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر.

وبدأ البيان الكريم من الله تعالى بحصر إخراجهم من ديارهم بقوته وحده لا شريك له، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ هو ربكم لا غيره الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من منازلهم. أي: أخرج بني النضير من ديارهم، مستسلمين، من غير قتال. فقد أخرجهم عَزَّ وجل ﴿ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ ﴾ أي: لأول حشر لهم. فهذا كان أول حشرهم من المدينة، وسيعقبه حشر آخر، وهو إخراجهم من خيبر. ومن رحابة البيان أنه استوعب جميع دلالات الحشر. فقد ورد في معناها أربعة دلالات: الدلالة الأولى: أنهم أول مَن حُشر وأُخرِج من داره. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن السائب رحمه الله تعالى: هم أول مَن نُفي مِن أهل الكتاب. والدلالة الثانية: أن هذا كان أول حشرهم. والحشر الثاني إلى أرض المحشر يوم القيامة. قاله: الحسن. وقال عكرمة: من شك أن المحشر إلى الشام فليقرأ هذه الآية. وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم يومئذ: اخرجوا، فقالوا إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر. والثالث: أن الحشر الثاني: نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. قاله قتادة. والرابع: هذا كان أول حشرهم من المدينة. والحشر الثاني: من خيبر[1] وجميع هذه الدلالات غير متعارضة، بل استوفت جميع ما سيكون من الحشر لهم. وهذه من بلاغة تراكيب ألفاظ السياق في القرآن الكريم، والتي تُظهر كمال إعجازه في جميع تراكيب سياقه العظيم.

ثم يخبر تبارك وتعالى عما كان يظنه المؤمنون من صعوبة خروجهم من المدينة، وذلك لمنعتهم بما كان لهم من الحصون القوية. فأظهر تبارك وتعالى ذلك الظن الذي كان يظنه المؤمنون، بما يبين صعوبة واستحالة خروجهم لولا أن الله تعالى أخرجهم، ببث الرعب في قلوبهم. فقال تعالى ﴿ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ ﴾ ما ظننتم أن يخرج هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم بقدرته، نتيجة قوة حصونهم التي تحصنوا بها. وفي نفس الوقت كان أيضاً ظن أهل الكتاب مثل ظن المؤمنين، من أن قوة حصونهم تمنع عنهم بأس الله تعالى. فقال عَزَّ وجل عن ظنونهم ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فقد اعتقدوا أن حصونهم القوية تدفع عنهم قدرة الله تعالى. بما يفيد قوة التمكن حسبما خطر ببالهم، ووقع في حسبانهم. وبالتالي كانت المعادلة الظنية بين المسلمين وبين بني النضير هي صعوبة خروجهم لقوة تحصنهم. وأن الأمر في غاية الصعوبة. ولكن بأس الله تعالى أشد وأقوى،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٣٣١-٣٣٢)

وجنود الله تعالى لا حصر لهم أبداً. فكل شيء جُند له عَزَّ وجل، فيسلطه على من يشاء، وكيف يشاء. فإن كل شيء هو جند لله تعالى، فلا يتعزز عليه عَزَّ وجل شيء أبداً مهما بلغت قوته.

فقد جاءهم بأس الله تعالى من الباب الذي لم يخطر لهم به بال. فقال تعالى ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ ﴾ فقد جاءهم أمر الله تعالى من حيث لم يخطر ببالهم ذلك الذي حصل لهم. لأنهم قصروا فهمهم على قدراتهم، وعلى الأسباب، ولم ينظروا إلى عظيم قدرة الله تعالى، فلم يجعلوها في حسبانهم. فأتتهم قوة الله تعالى بإرعابهم برسوله صلى الله عليه وسلم، حيث أن الله تبارك وتعالى ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ ﴾ وهو شدة الخوف الذي أرعبهم به الله سبحانه وتعالى. بنزول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم إليهم، ومحاصرتهم. فتضاءلت القوة المادية، واضمحلت وتصاغرت في عيونهم، وأصبحوا يرونها لا تغني عنهم شيئا. وأصبحت الشجاعة جبناً، والقوة ضعفاً، وأصبح الفكر والتفكير باهتاً مهزوماً عاجزاً، والحيلة غير مجدية. فخارت جميع القوى[١] وكان موقع الرعب الذي هزمهم الله تعالى به هو أن أوقع في قلوبهم جميعاً الخوف الذي زعزعهم من شدة هوله.

وأوقع الله تعالى الرعب في قلوبهم بصيغة القذف ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ ﴾ والقذف هو الرمي السريع، فحل الرعب في قلوبهم، فحلت الهزيمة عليهم بقوة الخوف الذي هز قلوبهم هزاً عنيفاً، فلم يكن أمامهم إلا البحث عن سلامة المخرج فقط. مما يبين أن القلوب هي مكمن الخوف، ومكمن الشجاعة، ومكمن الجسارة. وبالتالي فقدوا كل حيلة، وكل سبب كانوا متعلقين به، ومنها قوة حصونهم. مما يبين أن لله تعالى جنود السماوات والأرض. فكل شيء جند له. كما أرسل على فرعون وقومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فجاست في بيوتهم وشوارعهم. حيث قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ مما يبين عظيم قدرة الله تعالى. وأنه عَزَّ وجل قد نصر رسوله صلى الله عليه وسلم بالرعب الذي يقذفه في قلوب من شاء، ومنهم بني النضير. مما يفيد التحذير من الغرور بالكثرة والقوة، فإن قوة الله تعالى أعظم وأدهى. كما يُعَلِّم المؤمن بأن يستعين بالقوي العزيز، وأن يتوكل على الله تعالى، ولا يخاف ولا يهاب إلا الله تعالى، وأن يكون حكيماً في تعامله، كما هو صلى الله عليه وسلم. وأن لا يغتر الإنسان بما لديه، ولا يعتمد إلا على الله القوي العزيز.

ومن شدة الفزع والرعب الذي تخلل قلوبهم أن وصف الله تعالى حالهم، مع منازلهم، ودورهم التي كانوا يسكنونها، أنهم يخربونها بأيديهم. فقال تعالى ﴿ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فقد نقضوا

(١) خالد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٢٩٥)

منازلهم، بأخذهم ما يمكن حمله معهم، من الأسقف والأبواب التي استحسنوها. لكونهم صَالَحُوا الرسول صلى الله عليه وسلم على أن لهم ما حملته الإبل. وكذلك حصل التخريب لبيوتهم بما كان من المؤمنين بسبب ما جنوا به على أنفسهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكان المؤمنون يهدمون حصون بني النضير من جهتهم من الخارج لأجل قتالهم. قال قتادة رحمه الله تعالى: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها، ويخربها اليهود من داخلها[١] فكلما ظهر المؤمنون على دار من دور هؤلاء الكفرة هدموا ما يتوسعون به لمقاتلتهم. فقد حاصرهم صلى الله عليه وسلم ستة أيام، مع شدة حصونهم ومنعتها[٢] حتى جهدهم الحصار، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب. فخرجوا من ديارهم على أن لهم ما حملته دوابهم.

ثم يُوجِّهُ اللهُ تعالى العباد إلى التبصر والتأمل، لأخذ العبرة، فقال تعالى ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ فتأملوا يأهل العقول في هذا الحدث المملوء بالمواعظ والاعتبار. مما يستلزم التأمل والتفكر، والنظر في هذا الحدث العظيم، ليستدل بها على قدرة الله تعالى، وكذلك يستدل بها على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لن يقف أمامه شيء مهما بلغت قوته. فعليكم يا أصحاب العقول، الذين هم أولي الأبصار بالاعتبار، والاستفادة، والانقياد لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: تدبروا ما نزل ببني النضير، واستفيدوا من هذه الحجج والعلامات الظاهرة، بأن دين الله تعالى سيظهره على الدين كله، مهما بلغت قوة المحاربين له.

فالعبرة من هذا الأمر العظيم للكافر أن يتأمل في مآل الكفر والكافرين، وأن يأخذ العبرة من ذلك، ليعود إلى رشده إن أراد الفوز في الدنيا والآخرة. وأما العبرة للمؤمنين بأن لا يركنوا للأسباب المادية فقط، ويجردونها من تدبير الله تعالى ومراده. فإن اتقوا وأخلصوا لربهم سبحانه وتعالى فإن دروب النصر عند الله تعالى لا يحصيها أحد، فهي أعظم وأكثر من أن يحيط بها البشر.

وهذا البيان لهذا الحدث العظيم يقدم لجميع العباد أهمية طاعة الله تعالى، بالتمسك بدينه عَزَّ وجل، ووجوب متابعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وأن الله تعالى ينتصر من الظالم بما لا يحتسبه، ولا يخطر بباله، ومن ذلك الرعب الذي يقذفه في قلب من يشاء، لينصر به الحق. مما يُعلِّم كل ظالم أن يعتبر ولا يغتر بقوته مهما كانت، وبلغت من القوة والقدرة، فقد يهزمه الله تعالى بالرعب، فيجعله يرى في الضعيف من القوة

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٥٠١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٥٥) خالد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٢٩٥)

ما لا يخطر بباله، فيجعله ينهزم له، ويرخي عنان كبريائه، وقد ينصره بقوة غيره، ومساندته له. فكل شيء هو جُندٌ لله تعالى. فهو رب العالمين.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم امتنانه، وذلك ببيان الوجه الآخر فيما لو لم يكتب عليهم الجلاء بالرعب الذي قذفه في قلوبهم. فقال تعالى ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ فلولا أن الله تعالى قضى في شأنهم بالجلاء، وهو الخروج من ديارهم بالجلاء الذي لا عودة ولا رجوع لهم إليه ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بالقتل والسبي، والأسر ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ ولهم أيضاً في الآخرة عذاب النار، مع ما حل بهم في الدنيا. ولكن قضى الله سبحانه وتعالى بحكمته وقضائه بخروجهم، ليسلموا من عذاب الدنيا من القتل والسبي، وليكون لهم عذاب النار في الآخرة ما لم يؤمنوا. فأعطاهم الله تبارك وتعالى مهلة ليفكروا، ويتأملوا فيما يجب عليهم من الإيمان بدينه الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا من رحمة الله تعالى، إذ يعامل عباده بمقتضى حكمته ورحمته جَلَّ جلاله.

ومن دقائق السياق أن قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ ليس عطفاً على جواب ﴿ وَلَوْلَآ ﴾ فإن عذاب النار حاق عليهم، وليس منتفياً[١] فهو ثابت عليهم ما لم يؤمنوا ويدخلوا في دينه عَزَّ وجل. فهذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب ﴿ وَلَوْلَآ ﴾ فهو بيان لما سيحصل لهم في الآخرة من العذاب، وإن نجوا من عذاب الدنيا[٢] فعذاب الدنيا للكافر لا يُسقط عنه عذاب الآخرة.

ثم يخبر الله تعالى عن سبب تسليط المؤمنين عليهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي: أنهم فارقوا وجانبوا أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فأصبحوا في شق، غير شق المؤمنين، بمحاربتهم لدين الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. والمشاقة تعني المفارقة مع المناوأة والمكايدة والمعاداة. ودلالة اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ ﴾ تنويه لما فعلوا من المشاقة والمعاندة والمفارقة والمضادة التي كانت منهم لربهم سبحانه وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. ولتفيد علة وسبب ما أصابهم من الرعب والإجلاء عن منازلهم ودورهم، والإذلال والمهانة التي تحققت من الله تعالى لهم، وذلك بسبب مناكفتهم ومكايدتهم لدين الله عَزَّ في علاه، ولرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/٣٩٩-٤٠٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/١٩٦)

ثم يبين الله تبارك وتعال حال كل من يناوئ ويضاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فإن من يعدل ويفارق ويجانب منهج الله تعالى، فيناؤوه ويعاديه فإن الله تعالى له بالمرصاد، فيعاقبه على ذلك بأشد العقوبة. فإن عقوبته عَزَّ وجل عذاب شديد لا يطيقه العبد، وهذا حكم عام لكل من يشاقق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. فإن الذي أصابهم وحل بهم من المهانة والذلة والطرد من ديارهم هو نتيجة مشاقتهم لله تعالى. فإن عقوبة الله تعالى قوية وشديدة إذا قضى بها على المعاند، المشاق. بما يفيد الحذر من معاداة دين الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، فإن عقوبة ذلك ليست بالهينة واليسيرة. مما يعزز في المؤمنين قوة التمسك بدينهم، وأن لا يهابوا عدوهم، وأن قدرة وعقوبة الله عظيمة. فتلك قاعدة عامة من الله تعالى لكل من يشاقق دينه سبحانه وتعالى بالمحاربة والمعاندة.

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾

يعالج تبارك وتعالى الاختلاف حول شأن ما قُطِع من نخيل بني النضير، وهو اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في حكم ما قُطِع وما أحرِق منها. فقال عَزَّ وجل ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فيا أيها المؤمنون ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ أي: من نخلة، وهي معنى ﴿ لِّينَةٍ ﴾ وهي جميع أنواع النخل ما عدا العجوة. قال كثير من المفسرين: اللينة ألوان التمر سوى العجوة[١] وعن الزهري رحمه الله تعالى أن اللينة هي : ألوان النخل كلها إلا العجوة[٢] فيخرج من هذا الاسم العجوة. ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً ﴾ أي: تركتموها كما هي ثابتة قائمة ﴿ عَلَىٰٓ أُصُولِهَا ﴾ أي: على ساقها

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٦/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٧/٢٢)

وجذعها الذي تقف وتعتمد عليه النخلة ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فإنه بإذنه تبارك وتعالى، ولو شاء لما جعلكم تقطعون ما قطعتم، وتتركون ما تركتم.

فإنه لما نزل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه محاصرين لبني النضير المتحصنين في حصونهم، أمر عليه الصلاة والسلام بحرق نخيلهم، حتى يستدعيهم إلى الخروج من حصونهم، فعن عبد الله بن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم حَرَّق نخل بني النضير وقَطَّع. فأنزل الله تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[١] وقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم في شأن قطعها، فقال بعضهم: لا تقطعوها، لأنها مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فنزلت الآية بتصديق من نهى عن قطعها، وفي نفس الوقت أَحَلَّ اللهُ ما حصل من القطع، أي: بتحليل من قطعها من أي إثم. فأخبر تبارك وتعالى أن قطعها وتركها بإذنه عَزَّ وجل. فلو شاء لما كان ذلك. فما قطعتم من ألوان النخيل وما تركتم هو بإذنه سبحانه وتعالى، فلو شاء ما جعلكم تقطعونه. مما يفيد أن ربكم هو الذي هيئ منكم ذلك، لمزيد الرعب في قلوب الكافرين، وأوقفكم عن الاستمرار بحكمته وإرادته ومشيئته. وقد كان ما قُطِع وأُحرق قليل جداً. فقد قيل: أنهم قطعوا وأحرقوا ستة نخلات، قاله الضحاك[٢] وقيل أقل من ذلك. مما يبين أنه شيء يسير، لإثارة الهلع والرعب في قلوب بني النضير. مما يبين أن الله تعالى إذا أراد شيئاً هيأ النفوس والعقول له. وهذا يُعَلِّم المؤمنين بأن يسألوا ربهم ويعتمدوا عليه، فإنه هو الذي بقدرته يرتب ويهيئ ما يشاء وكيف يشاء.

ثم يخبر الله تعالى بعلة ما أذن من الحرق والإبقاء، فقال تعالى ﴿ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ ليهين ويُذل به بني النضير ويخزهم، بما يرون من عظيم أموالهم وهي في أيدي المؤمنين، وهم يتحكمون فيها بما يشاؤون من الحرق أو القطع أو الإبقاء، وأنهم عاجزون عن منعهم. وسماهم سبحانه وتعالى بالفاسقين ﴿ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ لكفرهم، وعدم إيمانهم. والفسق هو الخروج عن الشيء. بما يفيد أنهم متحققون من حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنه نبي الله تعالى عليه الصلاة والسلام، فكان حالهم كحال من عرف الحق وخرج منه. فهو وصف دقيق لبيان قوة معرفتهم بنبوته عليه الصلاة والسلام، بما يجدونه في كتبهم التي وصف الله تعالى فيها نبيه عليه الصلاة والسلام، فيعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أنه حق، ودينه حق. كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ ولكن الحسد والكبرياء يمنع المستكبر. فالكبر هو بطر الحق، وغمط الناس حقوقهم كما ورد في الحديث. مما يبين خطر

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٨٨٤) مسلم، برقم (١٧٤٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٣٥/٧)

الكبر والاستعلاء، فإنه يصد ويمنع صاحبه عن قبول الحق. وإذا كان هذا في الدين وما يترتب عليه في الدنيا والآخرة من دخول النار لمن كفر، فكيف بما هو دونه من تعاملات الناس فيما بينهم؟ نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وأن يجيرنا من الكبر.

ثم يذكر تبارك وتعالى شأن الغنائم التي تَحَصَّل عليها المؤمنون من غزوة بني النضير. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ وما أعطى ومنح سبحانه وتعالى بما أفاء ربكم بالمنح والعطاء على رسوله صلى الله عليه وسلم من أموال يهود بني النضير ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ فما أوضعتم في هذه الغزوة من غير إسراع ولا كلفة منكم أيها المسلمون لتحصيله، وإنما الله ربكم سبحانه وتعالى هو الذي يمكن رُسُله على من يشاء، فينهزمون كما انهزم بني النضير. فربكم على كل ما يريد قدير. فلا يعجزه شيء.

ومن دقائق البيان أن وصف الله تعالى ما حصل عليه المؤمنون من الغنائم بالفيء ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ ﴾ والفيء في الحروب هو ما يحصل عليه الجيش من الغنائم. وهو ما تركه العدو من الأرض والدور والنخل، وأنقاض بيوتهم التي تركوها، فهو عطاء من الله ربكم لكم من غير إيجاف منكم ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ يعني: من غير إسراع وكلفة منكم، فما أسرعتم إليه، ولا بذلتم كلفة منكم أيها المسلمون لتحصيله، وإنما هو خير قد ساقه الله تعالى عليكم من أموال بني النضير. قال قتادة رحمه الله تعالى: ما قطعتم إليها وادياً، ولا سرتم إليها سيراً، وإنما كان حوائط لبني النضير، طُعمة أطعمها الله رسوله صلى الله عليه وسلم[1] فهي دلالة على نفي إرادة وابتغاء ما حصل عليه المؤمنون. فلم يكن ذلك في خواطركم، ولا مرادكم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والله ما اختارها دونكم، ولا استأثر بها عليكم. لقد أعطاكموها، وبثها فيكم، حتى بقي منها هذا المال، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنة[2] وفي رواية أيضاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، وما بقي جعله في الكراع والسلاح، عُدة في سبيل الله عَزَّ وجل[3] وهذا من رحمته وكرمه صلى الله عليه وسلم،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٣/٢٢)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٧٢٨) مسلم، برقم (١٧٥٧)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٩٠٤) مسلم، برقم (١٧٥٧) وأحمد (٣٣٧) واللفظ له

فبالرغم مما خصه الله تعالى به بهذا الفيء إلا أنه أنفق منها على أهله نفقة سنة، وأفاض الباقي على المسلمين، وعلى تسليح جيش المسلمين بالعتاد.

فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ فما أوضعتم في هذه الغزوة من خيل ولا إبل. إذ لم تركبوا لتحصيل هذا الفيء خيلاً ﴿ وَلَا رِكَابٍ ﴾ أي: ولا إبلا. فالمقصود بالركاب الإبل، لأن الركاب هو ما يُركَبُ من الإبل خاصة. بمعنى لم تخوضوا معهم حرباً، ولا تكلفتم فيه مؤنة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى في خلاصة معناها: إن مما رَدَّ اللهُ تعالى على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلا، ولا تجشمتم لها شُقة، ولا لقيتم بها حرباً، ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فجعل الله تعالى أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وسلم، خاصة لهذا السبب، فإنه افتتحها صلحاً، وأخذ أموالها. وقد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم، فنزلت الآية ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾[1] فإن الله ربكم سبحانه وتعالى يُمَكِّن رُسُلَهُ على من يشاء، فينهزمون كما انهزم بني النضير. ومع ذلك فقد وَزَّع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بين المؤمنين، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما سبق بيانه آنفاً.

وقد كان السبب في النصر هو ما قذفه الله تعالى من الرعب في قلوب عدوكم، وذلك لعظمة قدرته عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ فربكم على كل ما يريد قدير. فلا يعجزه شيء أبداً. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره، ومن ذلك نصره لكم على أعدائكم، وتمكينكم بالفتوحات والمغانم، وفي كل شأن من شؤونكم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته تبارك وتعالى، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم. وعدم الخوف من العدو. وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه ليعينكم ويمكنكم، وأن لا تيأسوا، واحذروا مخالفته سبحانه وتعالى. وليكون هذا الحدث وغيره آيات إعجاز، وبراهين ظاهرات وبينات على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن هذا هو دين الله تعالى، وسيظهره على الدين كله، ولو كره الكفرة أجمعين.

ثم ذكر تبارك وتعالى حكم الفيء. فقال تعالى ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ إن مصارف ما أفاء الله

---

(1) الشوكاني، فتح القدير (١٩٧/٥)

تعالى من أموال كفار أهل القرى هو وفق ما بينه لكم. والفيء في الحروب هو ما يحصل عليه الجيش من الغنائم. وقد لخص السعدي رحمه الله تعالى ذلك بقوله: خُمس لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فيصرف في مصالح المسلمين العامة. وخُمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، حيث يساوى فيه بين ذكورهم وإناثهم. وخمس لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له، ولم يبلغ. وخمس للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء، المنقطع بهم الطريق في غير أوطانهم[١] وهذا التقسيم هو من لطفه سبحانه وتعالى، إذ لم يجعل لأحد فيه اجتهاد، ليستوفي به الخير لأهله المستحقين له. والمتأمل يجد تعميم النفع لكل محتاج، وهذا من عظمة أحكام الله تعالى، التي يعم نفعها كل محتاج. وهذا من كمال رحمته، ومن شواهد هذا الدين على أنه دين الله تعالى، بلا ريب ولا شك في ذلك.

وهذه الآية الكريمة متوافقة مع الآية التي في سورة الأنفال ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ وهذا التقسيم هو من لطفه سبحانه وتعالى، إذ لم يجعل لأحد فيه اجتهاد، ليستوفي به الخير لأهله. قال الزجاج: الأموال ثلاثة أصناف: فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب، فقد سماه الله تعالى: أنفالاً وغنائم. وما صار من المشركين من خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب، فقد سماه: فيئاً. وما خرج من أموال المسلمين، كالزكاة والنذر والقُرَب؛ سماه: صدقة[٢] وقد استوعب قوله تعالى ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ كل شيء يُفيئه الله تعالى من أموال كفار أهل القرى. وهذه من دقة بيان القرآن الكريم. مما يفيد عموم كل شيء غنمتموه صغيره وكبيره، فلا يحل لأحد أخذه وحيازته مهما بلغ صغره وحقارته، حتى ولو كان مخيطاً أو أقل شأناً منه، فإنه داخل في الغنيمة.

والغنائم هي الأنفال، وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أن الأنفال: جمع نفل، وهي الغنيمة، وأصل النفل الزيادة، ومن ذلك إطلاق النافلة على التطوع، لكونها زائدة عن الواجب، وسميت الغنيمة نافلة لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد.[٣] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: النفل الغنيمة، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه، والنفل ما ينفله الغازي، أي يُعْطَاه زائداً على سهمه من الْغُنْمِ، كقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب: من قتل قتيلاً فله

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٠٦/٥)
(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٤٤/٣)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٢٨٣/٢)

سلبه، أو أن يقول لسرية: ما أصبتم فهو لكم، أو فلكم نصفه[١] وذكر الجرجاني في تعريف النفل: أن النفل لغة: الزيادة، ولهذا سميت الغنيمة نفلاً، لأنه زيادة على ما هو المقصود من شرعية الجهاد، وهو إعلاء كلمة الله تعالى، وقهر أعدائه، وفي الشرع: اسم لما شرع زيادة على الفرائض والواجبات، وهو المسمى بالمندوب والمستحب والتطوع[٢] وملخص ذلك: أن الأنفال هي الغنائم التي يحصل عليها المسلمون من الحرب، وسواء ما يكون زائداً بخصيصة أو لعلة، أو ما كان بالتساوي، فالحكم فيها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. ولكن أفادت دلالة لفظة الأنفال رحابة أوجه معانيها من غير تعارض ولا تضاد، بل في اتساق، مع الرحابة في توسعت دائرة الفهم والاستيعاب.

وقد تولى الله تعالى قسمة الغنائم ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولخص السعدي رحمه الله تعالى ما ورد في سورة الأنفال، وأعيد إيراده لقوة فائدته. فقال رحمه الله تعالى: ذلك بأن ما أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأن الله تعالى أضاف الغنيمة إليهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يُقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للراجل سهم، وللفارس سهمان: سهم لفرسه، وسهم له، وأما هذا الخُمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله تعالى جعله له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والله ورسوله غنيان عنه، فَعُلِمَ أنه لعباد الله تعالى. فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة، والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، من بني هاشم، ومن بني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه هي مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث: لليتامى، وهم الذين فُقِدَت آباؤهم، وهم صغار، جعل الله تعالى لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فُقِد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع: للمساكين، أي المحتاجين الفقراء، من صغار وكبار، وذكور وإناث. والخمس الخامس: لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده[٣] وهذا من عظيم تدبير الله تعالى، ومراعاته لأحوال العباد، وحاجاتهم، فخصهم بما يرفع عنهم الحاجة. مما يبين عظيم رحمة الله تعالى. ويدل على أن هذه الأحكام لا يمكن أن تكون إلا من رب العالمين. بما يثبت أن هذا الدين حق، وغيره كفر. وأن القرآن كلام الله تعالى، نزل على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/١٩٠)

(٢) الجرجاني، التعريفات (٢٤٥)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢/٢٠٣-٢٠٤)

ثم من حكمته تبارك وتعالى أن علل هذا التشريع في القسمة، فجعل حضاً للمساكين والأيتام، فقال عَزَّ وجل ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾ فشرع ربكم لكم هذا التشريع في قسمة الغنائم حتى لا يكون المال من الغنائم متداولاً بين الأغنياء فقط. فلا ينتفع به أهل الحاجة من المساكين وابن السبيل واليتامى. إذ جعل لهم حقاً في ذلك، فيستمتعون بالمال كما يستمتع به غيرهم من أهل اليسار. مما يبين الحكمة العظيمة التي اعتنى بها تشريع ربنا سبحانه وتعالى. وليتبين عظمة هذا الدين، الذي يُعَلِّم أتباعه أهمية الالتفات لغيرهم من ذوي الحاجات، بالعون والمساعدة لهم. كما يبين رحمة الله تعالى بالفقراء والمساكين.

ثم يأمر سبحانه وتعالى المسلمين بأن يمتثلوا للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر وينهى. فقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ فأتمروا بما يأمركم به الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد جمع الله تعالى في هذا الأمر جميع ما يأتي عن النبي صلى الله عليه وسلم، من الأحكام، والتشريع، والأخلاق والآداب، وما يقسمه بينكم. وكذلك اجتنبوا ما ينهاكم عنه، بأن لا تختلفوا على رسولكم صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فاجتنبوا عن كل شيء ينهاكم عنه. ليستوفي كل نهي، وفي أي شأن. لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر. بل ورد البيان بأسلوب قطعي نهائي ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ ليتبين أنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، ولا يأمر ولا ينهى إلا بتشريع وحكمة واضحة بينة، وأنه وفق مراد الله تعالى.

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة عظيمة كريمة، فقال الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ يأمر الله تعالى عباده بتقواه، التي تستلزم الخوف من مقامه وسلطانه، ثم عضد هذا الأمر ببيان شدة عقوبته لمن تجرأ على دينه ونهجه بالمخالفة. مما يفيد تعليمياً ودعوياً أهمية الموعظة في تمام البيان؛ بما يناسب الحال والمقام. وقد جاء الحث على التقوى بصيغة الأمر ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لتفيد وجوب الالتزام بالتقوى. ثم بين عَزَّ وجل صفة عقابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فإن عقاب ربكم سبحانه وتعالى موصوف بالشدة من القوي العزيز.

وقد سبق هذا الوصف التأكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾ الذي أفاد غاية الزجر بالوعيد المتحقق لمن لم يتق ربه تبارك وتعالى. مما يفيد أن من نعمة التقوى أنها تجعل المؤمن يحذر المعصية ويتجنبها. ومن غزارة الأسلوب التحذيري، أنه تبارك وتعالى هدد وحذر بعقابه على وجه العموم، دون تحديد لنوع العقوبة، حتى تتحرك النفوس نحو كل ما يمكن أن تتوقعه من العقوبات، إزاء ما يقترفه العباد من المعاصي.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

ينتقل التوجيه الكريم إلى الإخبار عن فضل المهاجرين والأنصار، فبدأ البيان من الله تبارك وتعالى بمدح المهاجرين الذين هاجروا إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، تاركين ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله عَزَّ وجل، فخصهم تبارك وتعالى بما يستحقون من الفيء، إكراماً لهم، وتعويضاً عما فاتهم في موطنهم الأصلي بمكة. فقال تعالى ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ يُعْطَى من الفيء الذي أفاءه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم الفقراء المهاجرين الذي اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وأموالهم يطلبون رضوان الله تعالى عنهم بهجرتهم، واتباعهم لرسوله صلى الله عليه وسلم.

والمهاجرون في قوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هم من هاجر إلى المدينة طاعة لله تعالى، ومتابعة ومحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، ونصرة لهذا الدين الحنيف. فعن قتادة رحمه الله تعالى: هؤلاء المهاجرين تركوا الديار والأموال، والأهلين، والعشائر، وخرجوا حباً لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. واختاروا الإسلام على ما نالهم من الشدة، حتى لقد ذُكِرَ لنا: أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه، ليقيم به صُلْبَه من الجوع. وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء، ماله دِثار غيرها[1] فقد بلغ بهم الجوع مبلغه، وبلغ بهم الفقر شدته، فخصهم الله تعالى من الفيء ما يعوضهم به. مما يبين عظيم تدبير الله تعالى، وكرمه لمن ترك وأعرض عن ملذات الدنيا من أجل طاعة الله تعالى، فقد قدموا طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم على منافع ولذائذ الدنيا. فرضي الله عن المهاجرين.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٣/٢٢)

ثم وصف اللهُ تبارك وتعالى علة وسبب خروجهم من مكة إلى المدينة، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أولئك الذين خرجوا اضطراراً بسبب إيذاء المشركين لهم، ففارقوا ديارهم، وأموالهم، ودورهم ومنازلهم طاعة لربهم عَزَّ وجل. وفي تعيين وإظهار موطن الخروج من ديارهم ما يُبرز ويظهر قوة المفارقة، لأن ترك الديار ليس بالأمر السهل على النفوس. وكذلك أظهر تبارك وتعالى تركهم للأموال التي يصعب على النفس مفارقتها، لما فيها من السند والقوة لصاحبها، ولمحبة النفوس لها. ومع ذلك تجاسرت نفوسهم على تلك المفارقة القوية لأسباب قد نوه الله تعالى لهم بها. وهي ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يطلبون فضل الله تعالى، بأن يعوضهم سبحانه وتعالى من فضله عما فاتهم. وهو أمل ورجاء منهم، لإدراكهم بأن طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم تُفضي لهم بالخير في الدنيا والآخرة. والسبب الثاني: هو ﴿ وَرِضْوَٰنًا ﴾ التماسهم رضا ربهم بهذا الخروج، وليس لأمر آخر، بما يفيد الإخلاص لله تعالى بهجرتهم. وهذه تزكية عظيمة من الله تعالى لهم، بهذا الوصف والتزكية العظيمة، التي تسجل لهم الرفعة، والمنزلة الكبيرة. وقد أكد الله تعالى لهم إخلاصهم في هذه الدين بالتطبيق العملي الذي هو السبب الثالث: فقال تعالى ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ فهدفهم وغايتهم ليست الدنيا، بل لينصروا دين الله تعالى، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان أن عطف الله تعالى نصرة الرسول على نصرته، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ليتبين أن نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي من نصرة الله تعالى.

ثم أجمل سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم هم أهل الصدق، الذين باشروا ربهم بإخلاصهم، وبالاتباع والتطبيق العملي. فقال تعالى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ فهؤلاء هم المتصفون بالصدق. وهذه تزكية عظيمة ورفيعة من الله تعالى لهم، بهذا الوصف العظيم، والمنزلة الرفيعة. فقد بدأ الوصف لهم باسم الإشارة ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ ليفيد الإظهار والتمجيد والتبجيل لهم بما كان منهم، فقد أثبتوا صدقهم. ثم أفاد قوله تعالى ﴿ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ المبالغة بالمزيد من التمجيد، بأسلوب الحصر والقصر، بما يفيد المبالغة في نعتهم ووصفهم بالصدق، فقد ارتقى وتعالى صدقهم بما كان من هجرتهم، وتركهم لديارهم وأموالهم. مما يبين عظمة وأهمية الإخلاص، وأن من ترك شيئاً لله تعالى عوضه الله سبحانه وتعالى بخير منه. فقد عوضهم الله تعالى بهذا المدح والتزكية والثناء، بآيات تُتلى إلى يوم القيامة. وكذلك بما أغدق عليهم من الفيء، والنصرة، والفتوح، ومصاحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونزلت في وصفهم آيات تمدحهم وتُثني عليهم إلى أن يُرفع هذا القرآن العظيم من الدنيا. فرضي الله عن المهاجرين.

ثم اتجه البيان من الله تعالى إلى المدح والثناء على أهل المدينة من الأنصار رضي الله عنهم. ومشيداً سبحانه وتعالى بما كان منهم، من كريم تعاملهم مع من هاجر إليهم، محبة لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه

وسلم. فبذلوا كل غالٍ ونفيس في سبيل ذلك، ومنه تقاسمهم لأموالهم ودورهم مع المهاجرين، وإيثارهم على أنفسهم، وإن كانت حاجتهم ماسة لِمَا يقدمونه للمهاجرين، وذلك إيثاراً منهم لهم على أنفسهم. فقال تعالى عنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فالذين اتخذوا المدينة مستوطناً لهم، وآمنوا من قبل هجرة المهاجرين إليهم، وكانوا يواسون بمحبتهم وأموالهم لمن هاجر إليهم، ولا يجدون في نفوسهم على المهاجرين في شيء مما أعطاهم، وخصهم به من الرزق سبحانه وتعالى، بل إنهم يؤثرونهم على أنفسهم ولو كانت الحاجة لهم ماسة فيما أعطوهم، فيقدمون حاجة المهاجرين على حاجتهم. فإن هؤلاء الأنصار هم الذين تحقق لهم الفوز بخير الدنيا وخير الآخرة. فرضي الله تعالى عن الأنصار.

وقد بدأت الآية الكريمة بعطف حال وشأن الأنصار على المهاجرين بحرف العطف الملتحق بالاسم الموصول ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ فتبين به العلاقة والقواسم التي ربطت بين المهاجرين والأنصار. ثم نعتهم سبحانه وتعالى بأجمل وأدق وأرفع الأوصاف. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ﴾ أي: نزلوا واستوطنوا وسكنوا ﴿ ٱلدَّارَ ﴾ التي هي المدينة. فدلت وأفادت ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ ﴾ التمكن من استيطانها تمكناً قوياً. لأن تبوء الشيء: أي: تولاه، وتَسَلَّم زمامه، وتَوَطَّنَه. حتى تولاه وتمكن منه. فكانت دلالتها مبينة وموضحة على قوة الأنصار في تمكنهم من المدينة بفضل الله تعالى. ثم عطف عَزَّ وجل الإيمان على تمكنهم من المدينة. فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ فقد تمكن الإيمان منهم، وتمكنوا من تحقيقه تحقيقاً قوياً، بدلالة معنى ﴿ تَبَوَّءُو ﴾ الإيمان، بمثل ما تبوؤا الدار. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والتبوء في الأصل إنما يكون للمكان. ولكنه جعل الإيمان مثله، لتمكنهم فيه، تنزيلاً للحال منزلة المحل[١] مما يدل على قوة إيمانهم الذي ماثل قوة تمكنهم من استيطان المدينة. فهو وصف غاية في الرفعة والمكانة والدقة، وبراعة البيان القرآني، وعظيم بلاغته. فسبحان من أعجز عباده بإعجاز بلاغة كتابه القرآن العظيم.

ومن دقة البيان أن حدد تبارك وتعالى موطن الأنصار للمدينة من قبل مجيء المهاجرين لها، فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ أي: من قبل مجيء المهاجرين إليها، وذلك لبيان قوتهم من بين غيرهم من القبائل رضي الله عنهم. وأنهم لا يحتاجون إلى من يتقوون به من غيرهم. فمحبتهم للرسول صلى الله

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥/٢٠٠)

عليه وسلم وللمهاجرين عن إيمان صادق منهم. لِيظهر تبارك وتعالى كمال وجمال وصدق نيتهم، بتزكية من لدنه جَلَّ جلاله، فرضي الله عنهم أجمعين. ليعطوا غيرهم الدروس في الإيثار، وصدق الإيمان.

ثم وصف سبحانه وتعالى أخلاقهم مع المهاجرين، فقال عَزَّ وجل ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ فإن الأنصار الذين تبوؤا الدار والإيمان يحبون المهاجرين حباً عميقاً. فإخلاصهم في الإيمان جعلهم يحبون إخوانهم المهاجرين، فقد ربط الإيمان قلوبهم، وارتفع بهم وبأخلاقهم، ووحدهم، وغرس بينهم المودة والشفقة والمحبة والتراحم. وفي وصف علاقتهم بالمهاجرين بصفة المحبة؛ ما يستجمع بها البيان جميع مفردات ما يندرج من أحوال علاقتهم بالمهاجرين بسبب هذه المحبة، فتشمل المودة، والعطف، وعلو منزلة الأخوة، وتقديرهم، ومحبتهم، ويتمنون لهم ما يتمنون لأنفسهم، وأنهم يحبون لهم الخير ولا يحسدونهم على نعمة، بل يتمنون ويحبون لهم أنواع الخير، وعظيم درجاته. فهو وصف لا حدود لما يترتب عليه من المعاني والدلالات من المكارم العظيمة. فسبحان من وصف حالهم بأدق الوصف الذي شمل جميع مفردات مكارم الأخلاق في علاقتهم فيما بينهم. فلا وصف أبلغ من هذا الوصف، الذي استجمع جميع المعاني التي لا حصر لها. فرضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وبعد أن وصفهم سبحانه وتعالى بأعلى الأوصاف وأكملها، انتقل إلى نفي جميع ما يُضاد هذا الوصف، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ وقد سلمت صدورهم من كل حسد لإخوانهم المهاجرين. فلا يجدون في قلوبهم ودواخلهم حسداً ولا غيظاً مما يحصل عليه إخوانهم المهاجرين الذين أحبوهم. فانتفى بذلك من صدورهم أي حسد على ما يصل إلى إخوانهم المهاجرين من مال الفيء، أو الفضل والتقدم، أو غيره. فقد ورد النفي عاماً ﴿ مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ من أي شيء يحصلون عليه، ليشمل أي نوع، وأي مقدار يحصلون عليه من الخير والفضل، أو المدح والثناء، بما يعني نفي حصول أضداد الفرح والبهجة لهم. ومن شواهد ذلك أنهم لم ينازعوا المهاجرين في شيء أبداً، ومن ذلك ولاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين تولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان الكريم أنه أوضح تبارك وتعالى حال إذا حصل خير للمهاجرين أو لبعضهم، فإنهم ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ لا يرون في دواخلهم أن لهم حاجة وعوز لما حصل عليه المهاجرون، فيرون أنه لا حاجة لهم فيه، ولا رغبة لهم في أن يماثلونهم، وهي درجة عالية فيما يختلج في النفوس، ويُحَاكُ فيها من تمني حتى المماثلة لهم، أو استشعار الحاجة لمثلها وليس لها. فقلوبهم مليئة بالإيمان الذي أسس فيهم كمال العفاف والاستغناء بما عندهم من قليل أو كثير، بل واستأصل منهم كل شائبة. حتى زكاهم علَّام الغيوب سبحانه وتعالى.

فقد قدموا رضي الله عنهم لغيرهم أعظم الدروس العملية في الحب الحقيقي، وخلو الصدور من الحسد، أو حتى الشعور بالحاجة مما يفيض الله تعالى به على غيرهم من المؤمنين. فرضي الله عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد قدموا أروع وأجل الوصف في كل أمر وشأن. فأصبحت الحاجة لتطبيقاتهم العملية أهمية كبيرة لكل مؤمن من بعدهم. فحقاً وهنيئاً لهم أن كانوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. اللهم اجمعنا بهم وبرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين أجمعين في أعلى جنة الفردوس، برحمتك يا رب العالمين.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى إظهار المزيد من فضائل ورفعة وعلو الأنصار في مكارم الأخلاق رضي الله عنهم، وصفاء وسلامة قلوبهم. فقال تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ويقدمون حاجة المهاجرين على حاجاتهم، من نفائس أموالهم ومنازلهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ حتى ولو كان بهم حاجة ماسة لِمَا يقدمونه للمهاجرين من أموالهم ودورهم، ومراكبهم، وغير ذلك مما يمكنهم تقديمه للمهاجرين.

فدلالة ﴿ خَصَاصَةٌ ﴾ تعني شدة الحاجة، وهي تجمع جميع أنواع العوز والحاجة، سواء من فقر أو حاجة قائمة للشيء الذي يخصون به المهاجرين على أنفسهم. مما يفيد أن إيثار الأنصار للمهاجرين لم يكن من غنى، وزيادة. فيقدمون ما نفل وزاد عنهم، بل يقدمون للمهاجرين ما كانت حاجتهم قائمة لما أعطوا. فشأنهم هو المبالغة في العطاء الذي هو ترجمة لوصف الله تعالى لهم بأنهم يحبون من هاجر إليهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ فقد ترجموا صدق تلك المحبة الإيمانية بأفعالهم. مما يبين أثر قوة الإيمان التي بلغها الأنصار رضي الله عنهم، وأن قوة الإيمان إذا استحوذت على صاحبها، وتمكنت منه فإنها تجعل منه شخصية وشخصاً يتبوأ مكارم الأخلاق، لعلمه بأن ما يقدمه هو في سبيل الله تعالى، فلا يستغلي ولا يستأثر لنفسه أمراً ولغيره له به حاجة. بل يرى أن ذلك هو أقل ما يمكن أن يقدمه طاعة لله تعالى. فيتوافق ذلك مع قوله عَزَّ وجل في وصفهم ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ فقد تبوؤا الإيمان واستوطنوه واستوطن قلوبهم بمثل ما تبوؤا الدار التي هي المدينة. ليعطوا المثل والأسوة للتطبيق العملي في مكارم الأخلاق، ومن ذلك الإيثار، حتى ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي: عوز وفقر وحاجة. رضي الله عن المهاجرين والأنصار.

ومن أخبار الأنصار رضي الله عنهم كما جاء في صحيح البخاري ومسلم رحمهم الله تعالى: أنه قَدِم عبد الرحمن بن عوف المدينة، فآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري. فَعَرَض عليه أن يناصفه أهله وماله. فقال عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في أهلك ومالك. دُلَّني على السوق. فربح شيئاً من إقط وسمن[١] فكانت تطبيقاتهم العملية حاضرة في حياتهم بشواهدها العظيمة. وكما أن الأنصار يؤثرون

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٩٣٧) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (١٤٢٧)

المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. فقد كان المهاجرون بعيدين عن الطمع في أموال إخوانهم. فقد كانوا جميعاً مدرسة لغيرهم. فرضي الله عن المهاجرين والأنصار.

ثم يختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقاعدة نفيسة للحصول على الفلاح، والتي تَمّثَّلَ بها الأنصار رضي الله عنهم فأفلحوا. فقال تعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فإن مَن يكون في وقاية وبُعد عن الشح، فإنه من المفلحين الذين فازوا وظفروا بمبتغاهم من خير الدنيا والآخرة. والشح هو الطمع والبخل. وقد أفادت دلالة الشح أنه الانقباض النفسي الذي يؤدي إلى الانقباض العملي عن فعل الخير، نتيجة انقباض النفس على ما تحبه مما تمتلكه، إلى درجة إيثار النفس على الغير من المحتاجين له. والذي يؤدي إلى الانقباض العملي عن فعل الخير. وقد أفادت دلالة ﴿وَمَن يُوقَ﴾ البعد بالنفس، والنأي بها عن الشح بممارسة السخاء، مما يتطلب لذلك مجاهدة النفس، ومقاومتها، بالتوقي من الشح وشره. وقد وردت ﴿يُوقَ﴾ بصيغة الفعل الذي لم يُذكر فاعله، لتستوعب جميع الأسباب الفاعلة للشح. وذلك لتنوعها وكثرتها. كالأمل عند الإنسان بما عنده ليحصل به على الغنى، بالمكاسب والمرابح، وكالأمل فيما عنده بما يُبعده عن الفقر واتقائه. فهذان سببان، وهناك أسباب أخرى عديدة. وهي كثيرة ومتفاوتة بين الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن أي الصدقة أعظم أجراً. فقال عليه الصلاة والسلام (أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى)[1] فهما عاملان قويان في التأثير على النفس. فتحتاج إلى قوة إيمانية يتغلَّب بها المؤمن بشدة وقوة على هذا الفاعل المؤثر. كما كان حال الأنصار رضي الله عنهم. حتى يكون من المفلحين، كما قال تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمرادهم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

فهي قاعدة وقوة لمعالجة النفس عندما يغلب عليها الشح والطمع، فيعالج شأنها بقوله تبارك وتعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ويعظ بها غير عندما يرى منه الشح مع القدرة، فيقول له بقوله عَزَّ وجل ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لتكون قاعدة فاعلة في تربية النفس على البذل والسخاء في العطاء. كما أن في قوله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دعم وتقوية للنفس، بما وصف الله تعالى به أصحاب الباذلين بالفوز بخير الدنيا والآخرة. مما يبين أن الله تعالى بكرمه يُعطي ويكرم بأكثر مما يكون من العباد. وخير مثال عملي هو ما اتصف به الأنصار رضي الله عنهم من الإيثار والمحبة لإخوانهم المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين. وبما كان من الله تعالى لهم من المدح، وعظيم الوصف والثناء، فقد أعلى من شأنهم. بل جعل سيرتهم آيات تُقرأ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة، وغير ذلك مما أفاء الله تعالى

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (١٤١٩) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (١٠٣٢)

عليهم وعلى المهاجرين من الفتوحات، وصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم، ورضاه عنهم سبحانه وتعالى، ورضاهم عن ربهم عَزَّ في علاه. وما بشرهم به في الآخرة من الفوز بأعلى الجنان، وأكرم المنازل. اللهم اجعلنا والمسلمين أجمعين معهم بمنك وكرمك يا رب العالمين.

وبعد أن مدح وأثنى تبارك وتعالى على المهاجرين ثم الأنصار رضي الله عنهم، يذكر عَزَّ وجل ما ينبغي أن يقوله الذين يأتون من بعدهم من المؤمنين. فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ والتابعون لهم من بعدهم إلى يوم القيامة من غير تخصيص، يسألون الله تعالى المغفرة لأنفسهم ولجميع من سبقهم من المؤمنين، فيشملون بذلك الدعاء جميع الأجيال المتعاقبة للمؤمنين إلى قيام الساعة. فدلالة قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ شاملة لكل من تابعهم على ملتهم ودينهم الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى اله عليه وسلم إلى يوم القيامة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: يعني التابعين، ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة[1] فإنهم يدعون بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ فيسألون الله تعالى المغفرة لأنفسهم ولجميع من سبقهم من المؤمنين، فيشملون بذلك الدعاء جميع الأجيال المتعاقبة للمؤمنين.

وكذلك يقولون في دعائهم ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: يسألون الله تعالى أن لا يجعل في قلوبهم بغضاً وحقداً وحسداً على الذين آمنوا؛ بما نالوا من الفضل والخير. لتشمل دلالة ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ السابقين من المؤمنين والمعاصرين لهم، بأن يُطَهر اللهُ تعالى قلوبهم من جميع أمراض القلوب من الشحناء والبغض والحسد. فدلالة ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا ﴾ تشمل جميع أوصاف الشر التي منبعها القلب، ثم تنعكس على الأفعال والأعمال والأقوال البشرية. مما يبين أن من يسب الصحابة أو بعضاً منهم، أو يتنقص منهم، أو يتهمهم بسوء، فإنه ليس من هذه الفئة الثالثة التي ذكر الله تعالى أوصافهم. مما يبين أن على المؤمن أن يجاهد نفسه في معالجة كل شيء يخالف أوصاف هذه الفئة الثالثة. وهذا تعليم من الله تعالى بحال من تبع المهاجرين والأنصار بإحسان إلى يوم القيامة. فيدعوا المؤمن بهذا الدعاء العظيم، فيكسب به الأجر الجزيل من الله سبحانه وتعالى. وفي هذا دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم، وتوقيرهم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة، لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء، ما

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١/١٨)

أقاموا على محبتهم وموالاتهم، والاستغفار لهم. وأن من سبهم، أو واحداً منهم، أو اعتقد فيه شراً أنه لا حق له في الفيء، روي ذلك عن مالك وغيره[١] مما يبين قوة العلاقة بين المؤمنين، حتى مع من سبقهم بالإيمان، فيخصونهم بالدعاء، ورجاء الخير لهم. وبالتالي يتحقق النفع بينهم، وإن لم يشاهدوا بعضهم بعضا، وكل ذلك بسبب قوة الإيمان ووحدة الدين التي جمعتهم في محبتهم بفضل الله تعالى.

كما يبين هذا الوصف العظيم أن من دلائل الإيمان تعاهد المؤمنين بعضهم بعضا بالدعاء، وسلامة الصدر من الغل والحسد، لِمَا يكون لبعضهم من الفضل. ثم يقولون في تمام دعائهم ترجياً منهم في ربهم سبحانه وتعالى أن يستجيب دعاءهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إنك يا ربنا متصف بالرأفة والرحمة، فامنحها لنا ولمن سبقونا بالإيمان يا رب العالمين. والرأفة تحمل دلالة الشفقة المبالغ فيها. فهي أعلى معاني الرحمة. بما يفيد أننا نلتمس منك يا الله ما اتصفت به من الرأفة والرحمة، فتبعدنا وتبعدهم عن سخطك وعذابك، وعن مؤاخذتنا على تقصيرنا. كما ندعوك يا ربنا بصفتك أنك ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعبادك أن ترحمنا وترحمهم. وهي صيغة تدل على المبالغة في الرحمة. ورحمة الله تعالى في الدنيا بعضها شامل للمؤمنين والكافرين والدواب جميعاً، كإنزال الغيث، وإنبات الزروع. وأما في الآخرة فلا تكون إلا للمؤمنين.

وصفة الرؤف تحمل معاني مليئة بالدلالات العظيمة، منها ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالرؤف بمعنى الرحيم، والرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. والرأفة أخص، والرحمة أعم.[٢] فكيف وقد اجتمعت مع بعضها البعض ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسُل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم بهم. وبالتالي كيف يُعْصَى وهو بالناس رؤف رحيم؟ وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم؟ فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. فإنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تَحْلُبُ ثديها تسقي .أي تُرضع. إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها

(١) المرجع السابق (٢٢/١٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٠/١)

وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحُه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[1] مما يستدعي محبة الله تعالى، ومجاهدة النفس في طاعته عَزَّ وجل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

بعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن إيمان وأخلاق المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، ينتقل البيان إلى الحال والصورة المضادة التي تَخَلَّق وتَمَثَّل بها المنافقون حتى مع إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب. لتعطي بياناً واضحاً وتجلية بينة لأهل النفاق. فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يخاطب الله تعالى المؤمنين وعلى رأسهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بصيغة التعجب من حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، بأنه كذلك هو مسلكهم حتى مع إخوانهم الكفرة من أهل الكتاب، وهم بني النضير، وذلك حين يقولون لهم: لإن أخرجكم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من منازلكم ودياركم لنشاركم في الخروج، فننصركم بمساندتنا وتقويتنا لكم، ولن نطيع في عدم نصرتكم أحداً أبداً. فلن يُخَوفنا أحد، فيمنعنا ويعذلنا عن نصرتكم. وإن حصل عليكم القتال لننصرنكم بقتالنا معكم.

---

[1] البخاري (٤/٩١) برقم (٥٩٩٩)

ولكن كل ذلك هو محض افتراء وكذب، بشهادة الله تعالى عليهم. مما يبين أن حال نفاقهم هو منهج مع كل طرف يتعاملون معه، فيظهرون لكل طرف أنهم معهم، وهم كاذبون فيما يقولون.

وقد بدأ البيان الكريم بلفت الانتباه لحقائقهم بأسلوب السؤال الذي يقرر حقيقتهم، ويكشفها بتحليل دقيق لواقعهم. فقال تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ وهو سؤال استنكار وتقبيح لحال المنافقين. ألم تتأمل؟ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ وهو تأمل يفيد التعجب والاستنكار من حال أولئك المنافقين في مسلكهم النفاقي، لِيُظهر سبحانه وتعالى حالهم النفاقي بالإنكار عليهم، من خلال صيغة التعجب لسوء فِعَالِهم، والكشف عن حالهم، وتعريتهم للمؤمنين. وهو سؤال استنكار ولوم أخلاقهم وواقعهم، وتقبيح مسلكهم النفاقي، بدليل توليهم لأهل الكتاب وعموم أعداء الدين، واتخاذهم حلفاء لهم، وهم يزعمون أنهم مؤمنون، وهم كاذبون.

وقد بدأ التوجيه الكريم بلفت الانتباه، من خلال السؤال الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين. وهو سؤال استنكار وتقبيح لهم عن علة توليهم للكفار. وكذلك هو سؤال لشد الذهن والحس والانتباه إلى الذي يذكره الله سبحانه تعالى عنهم. وهو كذلك استفهام توقف وتدبر لهم عن طريق التأمل في مسلكهم الذي اتخذوه. مما يفيد أنه يجب عليكم أيها المؤمنون الانتباه والحذر منهم.

وفيه قوة لفت الانتباه إلى ما قرره الله سبحانه وتعالى عن واقع وحقيقة المنافقين، وشد الانتباه إلى حقيقة تعاملهم النفاقي، بما يتعاهدون به مع الكفار من أهل الكتاب ومن الكيد لرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين. وفيه شد الذهن والانتباه والحس إلى علمه تبارك وتعالى بما هم مستمرون على نهجهم النفاقي، والكيد للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. فأعطى وأفاد السؤال دلالة التقرير، ولكنه بصيغة الاستفهام عن واقع حالهم في شدة النفاق. فَيُلْجِئُ المنافقين بذلك لأحد خيارين: إما الانتهاء عن نفاقهم، وإما الإقرار بنفاقهم الذي يعلمه الله تعالى عنهم، وبالأدلة والحقائق والبرهان التي أظهرها عَزَّ وجل واضحة جلية، وأنهم بذلك من أهل النار. بل سماهم ووصف الله تعالى علاقتهم مع اليهود بالأخوة، التي تستوفي التعاطف، والميل لهم. فقال تعالى عنهم ﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فهم أخوان الكافرين، وليسوا إخوة للمؤمنين، ولا ينتسبون إليهم أبداً. فهو إثبات لكفرهم، وأنهم من أهل النار، ونفى عنهم الإيمان الذي يتظاهرون به، بينما هم يبطنون ما هو ضده وعكسه تماماً. مما يبين دقة علم الله تعالى بالعباد، وكشفه سرائر المنافقين للمؤمنين. الأمر الذي يكشف للعباد عظيم علم الله تعالى، حتى بدقائق أحوال العباد وسرائرهم، فلا تخفى على الله تعالى خافية في الأرض ولا في السماء. بما يُوجب عليهم التخلي عن نفاقهم، الذي أظهره الله تعالى. وهو أسلوب توقف وتأمل، يستثير ويستدعي الذهن للتفكر فيما يجب أن يتفكر ويتأمل فيه. كما تقتضي دلالاته وجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وبالتالي توحيد الله عَزَّ وجل، ليستعيد به الإنسان سلامة وصحة منهجه في أمره وشأنه. فعجباً من هؤلاء الذين لا يعقلون ما يُقال لهم، ولا يستفيدون منه بما ينصلح به حالهم في الدارين.

وقد وصف الله تعالى العلاقة بينهم وبين أهل الكتاب بالأخوة التي ينتفي بها أخوتهم للمؤمنين، وتعريتهم من الإيمان، وأن الله تعالى لا يقبل إلا الحقائق، أما التظاهر بالإيمان وإبطان الكفر فإن الله تعالى لا يقبل إلا الحقيقة، بما وقر في القلب وصدقه العمل. كما أفاد البيان كفر أهل الكتاب، وأنهم ليسوا بمؤمنين ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مما يفيد أن بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد نسخت جميع ما سبق من الأديان والكتب، فلا دين إلا دين الله تعالى الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه لا كتاب يُعمل به إلا القرآن العظيم، الذي نسخ الله تعالى به جميع الكتب السابقة.

ثم بعد بيان العلاقة بين المنافقين والكافرين من أهل الكتاب يكشف الله سبحانه وتعالى أقوالهم من النفاق، حتى مع إخوانهم من أهل الكتاب، بما يبين أنه لا ثقة في كلامهم وعهودهم أبداً، وبما يستوجب الحذر منهم. فقال تعالى ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ لإن أخرجكم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من منازلكم ودياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ فإننا نشارككم في الخروج من منازلنا وديارنا، فنكون معكم في نفس الحال، فننصركم بمساندتنا وتقويتنا لكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ ولن نطيع في عدم نصرتكم أحداً أبداً. فلن نطيع أحداً في أن نخذلكم أبداً. وبالتالي فلن يُخَوفَنَا أحدٌ فيمنعنا ويعذلنا عن نصرتكم. وورد التعهد منهم ولإقرار بصيغة الجزم، إلى درجة المبالغة ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ ثم ينتقلون للاحتمال الآخر ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ وإن حصل عليكم القتال لننصرنكم بقتالنا معكم.

ثم يكذبهم الله تعالى، ويكشف طويتهم، ويعري تعهداتهم الباطلة، فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فإن ربكم يشهد عليهم بأنهم مفترون كاذبون فيما قالوا لأهل الكتاب، الذين هم بني النضير. فكل ذلك هو محض افتراء وكذب، بشهادة الله تعالى عليهم. وفي شهادة الله تعالى ما يبين تهويل وتعظيم افترائهم من الكذب والنفاق الذي يتعاملون به مع المؤمنين، ومع إخوانهم من الكفرة من أهل الكتاب. مما يبين أن حال نفاقهم هو منهج مع كل طرف يتعاملون معه، فيظهرون لكل طرف أنهم معهم، وهم كاذبون فيما يقولون. فقد أفاد وأوضح البيان من الله تعالى دقة الوصف لسرائر المنافقين، مع عمق ودقة علم الله تعالى بتفاصيل ما هي عليه قلوبهم. فشهادة الله تعالى عليهم تبين أن الله تعالى يعلم بتفاصيل حقائق العباد، وما يكون من ظاهر أعمالهم وسرائرهم، وما يخفونه فلا يعلنون عنه. بما يفيد التحذير من المكائد، ومن خفايا المعاصي. ووجوب الإيمان بذلك. كما أن اليقين بعلم الله تعالى يربي في المؤمن الشجاعة، والتوكل على الله سبحانه وتعالى، ولا ينظر إلا لتدبير الله تعالى وقوته، وفي نفس الوقت يربي فيه ذلك الحذر من المعصية، ومن النوايا السيئة. وتربي فيه استشعار معية الله تعالى له في كل حال، ومع كل خطاب، وفي كل مناجاة، ولا تمنعه سبحانه

وتعالى الظلمات، ولا الحواجز، ولا الستور. فكل شيء مكشوف لله تعالى. بل يعلم ما تخفيه الصدور، فكيف بظواهر الأقوال والأعمال.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى كذبهم ونفاقهم بقوله عزَّ وجل ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ فلئن أَخْرَج المسلمون بني النضير الذين هم أهل الكتاب، فإن المنافقين لن يتابعوهم في الخروج ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ وهو ما حصل، فلم يخرجوا معهم كما وعدوهم. وكذلك ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وإن قاتل الرسول عليه الصلاة والسلام بني النضير فلن يقاتلون معهم، لأنهم منافقون كاذبون ولا عهد ولا ذمة ولا وفاء عندهم.

ثم يخبر الله تعالى بما يكشف حال المنافقين فيما لو أظهروا مناصرة إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب. فقال تعالى ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾ ولئن حاول المنافقون نَصَرة بني النضير فإنهم سيهربون عنهم حال وقوع القتال. بما يثبت تخليهم عما وعدوا به من النصرة. وبالتالي قد أثبت الله تعالى نفي النصرة لهم على أي وجه كان ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ يعني بني النضير، بما يثبت أن الهزيمة متحققة فيهم. وقد كان الأمر والشأن كما بينه الله تعالى، فلم يحدث خلاف ما قاله وبينه عالم الغيب والشهادة سبحانه وتعالى. مما يبين عظيم علم الله تعالى بما سيكون قبل أن يكون. وعظيم تدبيره. وأنه مُطَّلِع على مسار الحوادث قبل حدوثها. بما يغرس في المؤمن التوكل على الله تبارك وتعالى.

ثم يخبر عَزَّ وجل بمكنون قلوب المنافقين وسرائر ضمائرهم فيما يخص شأنهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. فقال تعالى ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ إنكم أيها المؤمنون أشد رهبة في قلوب المنافقين وسرائرهم من رهبتهم من الله ربهم وخالقهم. والسبب ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يفقهون عظمة ربهم جَلَّ جلاله. وفي نفي الفقه عنهم ما يفيد نفي الاستدلال، فلا يستدلون بمخلوقاته وتدبيره وعموم آياته على عظيم قدرته عَزَّ وجل، وكذلك بإحاطته بهم الإحاطة الشاملة التي تبين لهم كمال علمه وقدرته عَزَّ وجل. ونتيجة لعدم تفقههم استخفوا بمتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وطاعة ربهم، فاستخفوا بالمعصية، والكذب، وهذا بالنسبة للمنافقين، وأما أهل الكتاب فقد استخفوا بعظمة ربهم، وتابعوا استكبارهم وحسدهم الذي امتلأت به صدورهم، فقدموا الخوف المباشر مما عاينوه من المسلمين على الرهبة والخوف من عذاب الله تعالى، والمكر بهم. مما يبين أن العاصي يتجرد من

الخوف من الله تعالى في معصيته، ولا يردعه إلا بما يشاهده من القوة، في الحرب، وفي إقامة الحدود فيما يخص المجتمع المسلم.

وفي تعيين موقع الرهبة بأنها في الصدور ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ما يدل على أن الصدر أعم من القلب، فهو الذي يحتوي على القلب الذي هو مركز العقل، والفهم، والعواطف، من الخوف، والخشية، والحب، والكره، والغضب، فينعكس ذلك على عموم الصدر. كما يدل ذلك ويفيد أنه طالما أن موقع الرهبة في الصدور ما يبين أنه لا يعلم بها إلا صاحبها، ولكن الله تعالى بعلمه العظيم قد كشفها للمؤمنين. وبالتالي استوجب هذا الأمر أن يُذعنوا لربهم الذي كشف حقائقهم وبواطنهم، وجردها من كل غطاء وتستر منهم لها. فإن الذي أظهر وكشف ما في قلوبهم قادر على كل شيء من أحوال عباده. وكان الأولى بهم إزاء هذا الكشف عما في قلوبهم أن يذعنوا لله تعالى، ويتحقق منهم صدق الإيمان.

وبالتالي فإن الذي يُظهرونه من القوة والسطوة، هو مظهر لا حقيقة له في قلوبهم، ويستخدمون التظاهر لإيقاع الخوف في المسلمين منهم فقط. فهو بيان وتعرية لهم من الله سبحانه وتعالى؛ عالم الغيب والشهادة، إذ كشف حقائقهم للمؤمنين، حتى يعرفوا عدوهم، ويعرفون بالتالي كيف يتعاملون معهم. وهي نعمة من العليم الخبير سبحانه وتعالى، بأن كشف لهم حقائق قلوب عدوهم. وهذا سائر على جميع الكافرين أمام المؤمنين، في كل زمان ومكان. وهي نعمة من الله تبارك وتعالى.

ومن دقائق البيان إظهار مظهر تلك العلاقة والارتباط بين عدم التفقه وبين كونهم قوم لا يفقهون، حيث قال الله تعالى عنهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بما يدل على أنه بالرغم من كثرتهم، بأنهم قوم، فهم جماعة كبيرة إلا أنهم مع ذلك بعيدين عن الفقه الذي هو إدراك الحقائق بما دلت عليه الأدلة. وما يتضمنه ذلك من القياس، والتفهم. فكان استعلاؤهم مع ما في قلوبهم من الحسد الذي امتلأت به قلوبهم كان هو السبب في عدم أخذهم بالخير والحق. مما يبين أن الاستعلاء والكبر والحسد يمنع من تحقيق الإفادة من معطيات نعمة الفهم. فبسبب ذلك انتفى عنهم ما ينتفعون به من الفهم والفقه.

وقد جمعت دلالة قوله تعالى ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المنافقين واليهود. فقد ورد من الدلالات: أنهم المنافقون، وقيل: أنهم اليهود، وقيل: أنهم اليهود والمنافقين[١] قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: إذ ليس اسم أحد الفريقين أولى بعود الضمير إليه، مع صلاحية الضمير لكليهما[٢] فاستوعب عموم السياق الفئتين معاً، اليهود والمنافقين. والمتأمل يجد أن هذا حاصل في جميع العصور، طالما تمسك المؤمنون

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤١/٧)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٢٣/١١)

بإسلامهم والامتثال لربهم عَزَّ وجل، فهو الناصر، وبيده كل شيء سبحانه وتعالى. فإن عدوكم في رهبة عظيمة منكم. كما أن في هذا البيان تعزيز لنفوس المؤمنين بما لا يدركون من الحقائق القلبية للمنافقين والذين كفروا. كما يكشف أن تحالفاتهم هي تحالفات هشة وضعيفة وكاذبة، لا تعدوا أنها مجرد أقوال. فإن خشيتهم من المؤمنين هي خشية شديدة وعظيمة، حتى وصفها اللهُ سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ فقد بلغوا الذروة في الخشية من المسلمين، وبلغوا الذروة في الكفر. فجمع البيان بين شدة كفرهم بتقديم خوفهم من المؤمنين على الخوف من الله تعالى. وبين المبالغة في شدة رعبهم من المؤمنين.

ثم يؤكد سبحانه ما سبق من الحقائق بدلائل واقع الحال منهم. فقال تعالى ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فإن من شدة رهبة وخوف وهلع اليهود وحلفائهم المنافقين، فإنهم لا يجتمعون على قتالكم، ولا يثبتون، ولا يتجاسرون على ذلك أبداً، إلا إذا كانوا متحصنين في أماكنهم ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بحيث لا يخرجون إليكم بل من خلال قراهم المحصنة بالخنادق والأسوار والمنعة، فحين إذٍ يحصل منهم القتال ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي: أو من وراء ما يتقون به، كالحيطان والجدر، التي هي الأبنية العالية والشاهقة بالارتفاع، فيحتمون بها، ويرمون بالسهام من خلالها. فإنهم لا يقاتلونكم في موطن من المواطن إلا وهم متحصنون بقراهم من الأسوار العالية والخنادق. مما يدل على خوفهم من مواجهة المؤمنين ومبارزتهم. فقد غرس الخوف فيهم العجز عن المواجهة الفعلية، لشدة رهبتهم من سطوة وقوة المؤمنين. وهذا من عظيم تدبير الله عَزَّ في علاه.

ويبين هذا أن ما غرسه الله تعالى في قلوب أعداء دينه من الخوف والهلع من المؤمنين، أنه مشاهد في جميع العصور الإسلامية. وهذا يعطي المؤمنين كشفاً لما في قلوبهم من الهلع والخوف من المسلمين. ثم يخبر تبارك وتعالى عن حقيقة بأسهم فيقول عَزَّ وجل ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ فيقرر تبارك وتعالى بأن بأسهم من الشدة والغلظة واقع بينهم فقط، لأنهم لا يثقون في بعضهم البعض. لتضارب المنافع والمصالح بينهم. وبالتالي: إذا كان بأسهم بينهم قد بلغ غاية الشدة والغلظة فإنهم مهزومون بسبب شدة بأسهم فيما بينهم. وكذلك قد أفاد البيان الكريم أن بأسهم محصور بينهم فقط ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ حين تظهر وتثور اختلاف المصالح وتضاربها بينهم. وأما مع المؤمنين فإنهم في غاية الرهبة والخوف والذلة.

ثم يكشف سبحانه وتعالى للمؤمنين ما يدور في دواخل وخلجات صدور هؤلاء الكفرة، ليصحح لهم ذلك بالحقائق التي لا يعلمها إلا رب العالمين، عالم الغيب والشهادة. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تظنون وتعتقدون وتتوهمون أنهم متكاتفون ومتلازمون جميعاً، مع بعضهم البعض ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ وقلوبهم متفرقة، ومختلفة فيما بينهم، فليسوا على قلب واحد، وبالتالي ليسوا على إرادة واحدة جازمة. مما يدل على أن أهل الباطل متفرقون في آرائهم وحساباتهم بحسب مصالحهم الخاصة، لأن القاسم المشترك بينهم متباين ومتعدد بسبب مصالحهم المختلفة، بينما الأصل في أهل الإيمان أن القاسم المشترك بينهم هو الإيمان بالله تعالى، وابتغاء طاعته وثوابه عَزَّ وجل. وبالتالي تتوحد إرادتهم بناء على اتحاد هدفهم وغايتهم. مما يعطي درساً عميقاً في جميع المجالات بأن سلامة وحدة الهدف تحقق الفوز والنجاح في كل عمل مشترك. وأن فساد النوايا ينجم عنه اختلاف الأهداف والغايات، فتضطرب المصالح، فينشأ الخلاف والفشل، وتتحقق الخسارة والهزيمة.

ثم يعلل سبحانه وتعالى علة وسبب تشتت قلوبهم باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: أن ذلك الاختلاف الذي نجم عنه تشتتهم، وعدم تماسكهم وتكاتفهم مع بعضهم البعض هو ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ بسبب عدم تعقلهم. فليس لديهم ما يتهيؤون به لإدراك الحق، لانشغال أذهانهم بالاستعلاء والحسد، فهو نفي لعقل الرشد، وليس عقل الإدراك. فعقل الإدراك هو عقل التكليف الذي هو عند كل أحد من الناس، ما لم يكن مسلوباً بجنون، أو بقصور، لصغر السن. فالنفي هو لعقل الرشد، الذي يعلم به صاحبه الحق والخير فيعمل ويأخذ به. وهو العقل السليم الصحيح الذي يقبل الحق إذا علمه، ويبتعد عن الشر إذا عرفه. فالذي يعرف ويعلم الحق ثم لا يعمل به، فليس لديه عقل رشد، وإنما لديه عقل إدراك الذي هو مناط التكليف والمحاسبة.

وفي هذا توجيه كريم ليدركوا ضعف تصورهم، وضعف عقولهم، إن لم يعملوها وفق منهج الله تعالى، الذي يصحح المفاهيم، وينور العقل بالعلم والفهم والقياس الصحيح، فينقل الإنسان من الضمور الفكري إلى السعة التي توصله إلى النجاة والخير. وفي ارتباط عدم التعقل مع أنهم قوم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ ما يدل على أنه بالرغم من كثرتهم، وأنهم جماعة كبيرة إلا أنهم مع ذلك بعيدين عن الرشد، مما يبين أن الاستعلاء والكبر والحسد مانع للإنسان من تحقيق الإفادة من معطيات نعمة العقل. فانتفى عنهم الرشد الذي هو ركيزة العاقل مع كثرتهم، وأنهم قوم. مما يفيد أن التعقل ليس مناطه الكثرة، وإنما مناطه تخلية القلب من الاستعلاء والحسد، حتى يتدبر الأمر وفق مساره وسياقه. لينشغل العقل بتدبر الحق، وليس لمواجهة الحق.

ثم يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بأحوال وشواهد الأحداث السابقة مع المؤمنين. فقال تعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فحال هؤلاء كحال المشركين من قريش الذين

اغتروا بأنفسهم، فلم يعقلوا، ولم يفهموا، فمنعهم غرورهم عن الأخذ بالحق، فقاتلوا وانهزموا يوم بدر، ولم ينتفعوا بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم. فهؤلاء اليهود كمثل المشركين الذين كانوا قريباً قبلهم، فلم ينتفعوا ويتفقهوا ويعقلوا بما حدث مع غيرهم من قبل. مع قرب غزوة بني النضير من غزوة بدر. وفي هذا تعليل وإثبات بأنهم لم يعقلوا ويفهموا، فقد تحقق فيهم ما تحقق في المشركين في غزوة بدر، من الهزيمة النكراء.

فقد نال أولئك المشركون عاقبة كفرهم، ولهم أيضاً عذاب شديد في قوة ألمه يوم القيامة. وكذلك أن حادثتهم كانت في القريب من حيث الزمن. وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر. وهو كذلك يفيد العموم في كل من أصيب قبلهم، مثل بني قينقاع، وكفار قريش يوم بدر، وبنوا قريظة، فإن مَثَل بني النضير كمثل بني قريظة ومن سابقهم. فإن تلك الأحداث متقاربة، وليست ببعيدة. بما يفيد أن أثرها باق في العقول والأذهان. ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ فقد نالوا في الدنيا سوء عاقبة كفرهم، ومعاداتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين يوم بدر. حين نالهم القتل، والأسر، وشناعة الهزيمة، مع كثرتهم وقلة عدد المسلمين. وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر. ومع ما نالهم من العذاب في الدنيا فإن لهم عذاب قادم يوم القيامة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فهو عذاب أليم شديد، فعليكم الاعتبار بمن كان قبلكم حتى لا تكونوا مثلهم. وفي هذا إرشاد من الله تعالى للكفرة بما هو ظاهر لهم مما حصل من الأحداث التي تُظهر أن الله تعالى مُظهر دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ولو كره وحارب وقاتل أهل الكفر أجمعين. فإنها آيات وحجج باهرة، ولكن البعض لا يفقه ولا يعقل، نتيجة الحسد والاستكبار والاستعلاء، الذي هو أقوى عوامل الاستمرار في الكفر مع وضوح الحق وظهوره وبروزه. مما يبين أن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، بل هو رحمن رحيم.

ثم يزداد البيان من الله تعالى إيضاحاً وبياناً، فيضرب اللهُ تعالى مثلاً لليهود والمنافقين وغيرهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فشبه تبارك وتعالى المنافقين في تغريرهم بيهود بني النضير بغرور الشيطان، وذلك حين قالوا لهم: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، وإن قاتلكم المسلمون لننصرنكم. فمثلهم ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾ كمثل الشيطان في إغوائه للإنسان، فعندما يغوي الإنسان، فإنه يُزين له الكفر، ويوسوس له في إيمانه، فيستدرجه إلى الكفر، والمعاصي، حتى يُوقعه في الشر ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فلما أوقعه في الكفر فإنه يتبرأ منه يوم القيامة، فأعلن خوفه من الله تعالى، ادّعَاءً كاذباً منه، ابتغاء النجاة. وكذلك أهل النفاق، فإنهم مماثلين في أسلوبهم للشيطان: فيزينون لليهود ولغيرهم محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى إذا وقعت الحرب، خذلوهم، وتبرأوا منهم، وأعلنوا الوجه الثاني لنفاقهم من

أنهم من أهل الإيمان. مما يبين توافق عمل الشيطان ونهجه مع عمل المنافقين، فهو يُظهر عونه ومعيته، ثم إذا وقع العبد في المصيبة تخلى عنه، وأعلن براءته منه، زاعماً أنه بريء مما أصاب المغرور به.

وفي هذا تنبيه بالتشبيه العملي من منهج المنافقين، ومنهج الشيطان الرجيم، فإنهما متشابهان، بما يستوجب الحذر بهذا البيان من التعليم والتوجيه والتحذير من رب العالمين، الذي كشف للعباد مكائد النفوس الخبيثة، وتشابهها مع الشيطان الرجيم. مما يبين أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى، بقوة ما فيه، وعظيم مضمونه، وتفسيره للحقائق التي تبين عظمة هذا الكتاب، بأنه كتاب نور وهداية لمن أخذ به، وتَعَلَّم منه، وتمسك به. فنحمد الله تعالى على نعمة القرآن العظيم، ونعمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ونعمة المهاجرين والأنصار، وجميع صحابة الرسول عليهم الصلاة والسلام.

ثم يخبر جَلَّ جلاله، عن عاقبة الشيطان وعاقبة المنافقين والذين أطاعوا الشيطان فكفروا بناء على مطالب الشيطان، وتغرير المنافقين. بأنهم في عذاب النار. فقال تعالى ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر بغواية الشيطان له، أنهما في النار ﴿ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا ﴾ مؤبدين فيها، فلا مسلك لهما للخروج من النار ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا جزاء لكل ظالم لنفسه ولغيره بالكفر، فإن جزاء الظالمين من الشياطين والمنافقين وعموم الكافرين هو الخلود في النار، فإن هؤلاء المنافقين والشياطين، ومَن أغواهم الشيطان، وأغواهم أهل النفاق ﴿ فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا ﴾ مما يفيد التحذير من الكفر، والتحذير من المنافقين ومن الشيطان الرجيم، وأهل الكفر أجمعين. وأخذ الحيطة من ذلك، لمن أراد الجنة وأراد النجاة. وفي هذا تعليم من الله تعالى للإنسان بما ينفعه، ويبعده عما يضره، وأن عليه أن يتقي أسباب دخول النار. وهذا البيان هو من رحمة الله عَزَّ وجل، إذ يريد سبحانه وتعالى للعباد الخير، والبعد عن الشر. ولكن الغرور، والكبر، وتقديم زينة الدنيا على الآخرة، تجعل الإنسان يذهب للغواية، ويترك أسباب النجاة من عذاب الله تعالى بالطاعة والامتثال لدين الله عَزَّ وجل. فنسأل الله تعالى الثبات على الحق وحُسن الخاتمة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا
يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ

جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى مخاطبة المؤمنين بما يقتضيه ويُوجبه الإيمان من لزوم الطاعة في السر والعلن، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ افتتح الله تعالى توجيهه الكريم بنداء المؤمنين بأرفع الألقاب وأجلها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بما يفيد التزكية لهم بالإيمان من ربهم عَزَّ وجل، وهي منحة ونعمة عظيمة، ومنزلة كريمة. فإذا كان الله سبحانه وتعالى يفتتح خطابه وتوجيه للمؤمنين بأحسن وأعظم الألقاب، وهو ربهم ومالكهم، وهم عبيده، وتحت سلطانه عَزَّ وجل. مما يعطي يفيد بالقياس عليه أهمية افتتاح الكلام في مخاطبة الناس بأحسن الكلام وأجله وأرفعه، فإنه أدعى للاستماع والقبول، والتفاعل الجميل، والبعد عن الجفاء في الخطاب. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] فهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه لمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وتشجيع وترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى المؤمنين بأمرين عظيمين مهمين: الأول: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ عليكم بلزوم التقوى، فالتزموا بتقوى الله تعالى فيما تستقبلونه من أمركم، لِمَا اشتملت عليه التقوى من الخشية والخوف والرجاء، والعمل بطاعته عَزَّ وجل، واجتناب ما نهى عنه وزجر. فالتقوى تمنع التعدي، وتجعل المؤمن يتحوط ويحتاط بالتزام الحدود، وضبط الفكر والسلوك، وملازمة الوفاء في كل شيء، وأبرزها الوفاء مع الله تعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك الوفاء مع أهل العقود والعهود والمواثيق، مما يفيد أن التقوى تحقق الاستقامة في كل شأن، لما فيها من دعائم الرغبة في ثواب الله تعالى وتوفيقه، والخوف من أن يحصل التقصير، أو إصابة معصية وجرماً فيغضب اللهُ تعالى على ما لا يرضيه. وقد ارتبطت التقوى بألوهيته سبحانه وتعالى، وباسمه الأعظم. فقد ورد التوجيه بلزوم التقوى بفعل الأمر ﴿ ٱتَّقُواْ ﴾ الذي أفاد الوجوب. ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فهو ربكم، كما قرن فعل الأمر بلفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ الذي له عظيم الهيبة، والجلال والإجلال، خاصة وقد اقترن بلزوم التقوى، وتقرير ألوهيته، الذي يجب أن تعبدوه في جميع شؤنكم بمراقبته، واتباع شرعه عَزَّ وجل.

والأمر الثاني: ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ فعليكم أن تتأملوا الأعمال التي قمتم وتقومون بها من أجل الآخرة، القريب موعده جداً، حتى وصف الله تعالى زمنه بأنه غداً ﴿ لِغَدٖ ﴾ ليفيد القرب الزماني، الذي يستلزم عدم الانشغال عنه بأي شيء يعطل تحقيق مكاسبه من طاعة ربكم جَلَّ جلاله. فحاسبوا أنفسكم، وتفقدوا أعمالكم وأحوالكم قبل أن يأتي هذا اليوم وأنتم لم تستوفوا فيه ما يجب عليكم من الطاعة والامتثال بأداء الصالحات ليوم ميعادكم الذي لا ريب فيه ولا شك في قدومه قريباً.

ثم أكد سبحانه وتعالى الأمر بالتقوى وذلك بإعادة الأمر بها. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فيجب عليكم أن تخافوا عقاب الله ربكم عَزَّ وجل، وأن تطيعوه فيما دعاكم إليه. وقد تكرر الأمر بالتقوى، لإفادة التأكيد، وإظهار الأهمية، لأن التقوى ركيزة الأعمال، إذ تؤدي إلى ما بعدها من الامتثال بالطاعة. وتتضمن التقوى أمرين مهمين: أحدهما: الخوف من عقابه سبحانه وتعالى، والثاني هو: الأمل والرجاء في رحمته وثوابه عَزَّ في علاه.

والتقوى تُحقق في المتقي مراقبة الله تعالى في السر والعلن. وقد ورد التوجيه بالتقوى بصيغة فعل الأمر ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ الذي يعني الوجوب. وليفيد أنه يجب عليكم أن تخافوا عقاب الله ربكم عَزَّ وجل، وأن

تطيعوه فيما دعاكم إليه، وبينه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا تأكيد لأهمية التقوى ومنزلتها، وأثرها في الاتباع. وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة.

ثم أخبر جَلَّ جلاله أنه عليم بكل ما يعمله العباد، فلا تخفى عليه خافية أبداً. فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فربكم خبير بما تعملون، فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تحدث منكم، فاحذروا من مخالفة ما ينهاكم عنه ربكم سبحانه وتعالى، ومن التقصير فيما يأمركم به عَزَّ وجل. فإن ربكم جَلَّ جلاله عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فلا يغيب عنه شيء أبداً، فهو خبير بموضعها، ومقاصدها، وما يكتنفها من أمور. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى فإنه يستوجب ويتطلب مراقبته سبحانه وتعالى في السر والعلن.

وإن في هذا الإخبار الدقيق ما يغرس في الْمُخَاطَب الانتباه، واليقظة، والتوقي من فعل الذنوب عموماً، والحذر حتى من أصغر الصغائر، والتوقي منها بكل ما يستطيع المؤمن. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع مخلوقاته، في سكونهم وتحركاتهم، وفي أماكنهم، أينما كانوا، فلا يغيب عنه من خلقه شيء أبداً. وهذا العلم بأن الله تعالى خبير يقوي إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله تعالى الخبير العليم اللطيف.

وقد أكد تبارك وتعالى ذلك بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ التي تؤكد تحقيق وتحقق ما بعدها، مع بيان صفته سبحانه وتعالى المؤكدة لتحقق كمال العلم، بأنه خبير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ثم أكدها باسمه الأعظم سبحانه وتعالى، الموضح والمبين لعظمته جَلَّ جلاله ﴿ٱللَّهَ﴾ فهو الله صاحب الاسم الأعظم، وما يتبعها من دلالة الألوهية والربوبية، والوحدانية. ثم تلاه وأعقبه بصفة الخبير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ الذي يفيد التمكن بعلمه وإدراكه ومعرفته بأحوالكم. فدلالة الخبير تزيد عن العلم بمعرفة أحوالكم وطبائعكم. فمن امتلك ذلك فإنه لا يخفى عليه شيء أبداً من أحوالكم، فكل شيء مكشوف له عَزَّ وجل.

وهو أسلوب في غاية الإبداع من كل وجه، ومن ذلك التدرج في السياق، بالنداء، وتسمية المخاطبين بأحسن التسميات والأوصاف. ثم الأمر بما يجب من التقوى، وما يلزم من الاستعداد لليوم الآخر، بأحسن الأساليب، ثم التأكيد بلزوم التقوى. ثم الإخبار بكمال علمه جَلَّ في علاه. لينتقل بالعباد إلى مهابته، والترهيب من علمه، ووجوب طاعته، والإخلاص له عَزَّ وجل. وكل ذلك من أجل حث المؤمنين على المزيد من طاعته سبحانه وتعالى، والامتثال لدينه، حتى يفوزوا بالآخرة. وهذا من رحمته بالمؤمنين، وعنايته بهم.

ولما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالتقوى، وأن ينظروا إلى ما قدموه لآخرتهم، حتى يحاسبوا أنفسهم في هذه الدنيا بما يدفعهم للعمل للآخرة، فيجتهدوا في الطاعة التي تقربهم من ربهم عَزَّ وجل، انتقل بهم بعد ذلك إلى الوجه الثاني الذي يُفسد على المرء دينه، بتقليد غيره في الباطل. فقال تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ إياكم أيها المؤمنون أن تكونوا في حالكم كحال الذين أهملوا طاعة ربهم ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ فكان حالهم كحال من نسي أن له رباً يحاسبه ويجزيه بما يستحق، فانشغلوا بملذات أنفسهم، وإشباع شهواتهم المخالفة لمنهج ربهم سبحانه وتعالى. فعاقبهم الله تعالى بما يناسب حالهم ﴿ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾ فكما تغافلوا عن حقوق ربهم عَزَّ وجل، أنساهم حظوظ أنفسهم، والاهتمام والعناية بها، فلم يقدموا لها خيراً في الآخرة. فعاقبهم من جنس صنيعهم. فكما نسوا حق الله تعالى عليهم، أنساهم حقوق أنفسهم التي يجب أن يقوموا بها. فإياكم أيها المؤمنون أن يكون حالكم كحال أولئك. مما يبين ويفيد التحذير من التغافل عن منهج الله تعالى، والتغافل عن وعده ووعيده، كالناسي لربه جَلَّ في علاه. فإن عقابه شديد.

ثم نبه سبحانه وتعالى المؤمنين إلى حقيقة هؤلاء الذين نسوا أنفسهم، بأنهم هم الخارجون عن طاعة ربهم تبارك وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ فإن أولئك هم العاصون بخروجهم عن منهج ربهم، وعن الامتثال له بما أمر، وعما نهى عنه وزجر. بما يفيد لا تتابعوا الغاوين، الذين خرجوا عن أحكام شريعة الله تعالى. لأن الفسق هو الخروج عن الأصل. فخرجوا عما يجب عليهم من الطاعة والامتثال. فخرجوا من ذلك إلى الذم. بل شَنَّع فعلهم، بأن جعلهم ربنا وتبارك وتعالى المخصوصون بالفسق ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ﴾ أي: الذين تمثلوا بالفسق ﴿ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ وكأنهم المخصوصون أصلاً بالفسق، لإفادة المبالغة في شناعة فسقهم، فقد تمادوا فيه إلى أقصى ما يكون من الفعل. وفي هذا تربية علاجية، ووقائية وتحذيرية للمجتمع المؤمن، من أن يسلكوا مسلك الفسقة. مما يوضح أن هذا الدين هو دين العلم والامتثال والطاعة، والأخلاق، وأن أحكامه وتوجيهاته نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده.

ثم يزداد وعظ الله تعالى للمؤمنين بما يُبعدهم عن المعصية، ويقربهم لطاعته عَزَّ وجل، بأسلوب التفاضل، فأبرز وأظهر سبحانه وتعالى عظيم التفاضل بين من مصاحبتهم كائنة للنار، وبين من تكون مصاحبتهم كائنة ومؤدية إلى الجنة والنعيم المقيم، فقال جَلَّ شأنه ﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ لا يستوي أصحاب النار مع أصحاب الجنة بتاتاً، فإن الفوز متحقق لأهل الجنة فقط. فينفي لهم سبحانه وتعالى ما هو متقرر عندهم من عدم استواء المصاحبين للنار مصاحبة دائمة، فلا

ينفكون عنها، وبين من تكون مصاحبتهم للجنة والنعيم المقيم ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ لا يستوي أهل النار ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ثم بعد نفي التساوي، وتقريره لهم بذلك، ينقلهم سبحانه وتعالى بالبيان الحكيم إلى تقرير الفوز، بأنه خاص بأهل الجنة ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ فأصحاب الجنة هم الفائزون الظافرون بالنعيم المقيم، والْمُبعَدُون والناجون من النار. فعليكم بإدراك الفوز من خلال طاعة ربكم، والامتثال لهديه. وأن لا تغتروا بالدنيا، ولا بالذين نسوا أنفسهم وحظوظهم من نعيم الآخرة، فكانوا من أهل النار المصاحبين لها. وفي نفس الوقت هو موعظة لكل من انشغل بالدنيا عن الآخرة، بأن ينتبه، ويعود إلى رشده. فهي موعظة لكلا الطرفين، وإن كان المخصوص بها أهل الإيمان، تحذيراً وتنبيهاً لهم. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين أجمعين من أهل الجنة، ويبعدنا عن النار.

ثم ينتقل البيان الجليل إلى إظهار وإبراز عظمة القرآن الكريم بأعظم البيان، وأقوى البلاغة بياناً وإيضاحاً. فقال تعالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إن من قوة ورفعة وعظمة شأن هذا القرآن العظيم، لو أن الله تعالى أنزله مخاطباً به جبلاً من جبال الأرض، لرأيت هذه الجبل مع ما فيه من الصلابة والقوة والشدة لرأيتاً خاضعة وخائفاً ومرتجفاً ومتذللاً، خشوعاً لربه عزَّ في علاه، لأنه كلام رب العالمين، ولِمَا فيه من المواعظ والأحكام، وقوة البيان ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ لو أن الله تعالى أنزله مخاطباً به جبلاً من جبال الأرض ﴿ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا ﴾ لرأيت هذا الجبل مع ما فيه من الصلابة والقوة والشدة ﴿ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا ﴾ أي: خاضعاً وخائفاً ومتذللاً، خشوعاً لربه جَلَّ في علاه ﴿ مُّتَصَدِّعًا ﴾ فكان مطأطئاً ومتشققاً، ومتكسراً، ومتهشماً ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ خوفاً وخضوعاً ومهابة لكلام الله تعالى. ولكن الله تعالى لم يخاطب به الجبال الراسية العاتية، بل خاطب به جنس الإنسان، بما يفيد أن من لم يخشع للقرآن الكريم هيبة وإجلالاً بالطاعة والامتثال، فإن قلبه أشد قسوة من قوة الجبال وصلابتها. كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ والخاشع هو الذليل لربه، والمطيع والمتواضع، والمستجيب لكلام ربه عزَّ وجل. مما يبين ويؤكد عظمة القرآن، وجلالة قدره، وقوته في التأثير على القلوب، مما يستدعي العناية بتدبره، وكثرة تلاوته، وسماعه.

مما يفيد أن القلب عندما تشتد قساوته فإنه لا يستجيب، بل تصبح شدة قساوته أعظم من شدة قسوة الحجارة، بل إن الحجارة أكثر استجابة من هذا القلب البشري إذا صار قاسياً. فإن من الحجارة ما تتفجر منه الأنهار والعيون، ومنها ما يتهشم من خشية الله تعالى. وكما اندك جبل الطور لما تجلى الله تعالى له ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ واهتزاز جبل أحد واضطرابه عندما اعتلاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. وكذلك حنين الجذع. فتفيد هذه الآية أن الجمادات تتفاعل مع آيات الله تعالى بالخشية عندما يخصها بأمر، كما قال تعالى عن الحجارة ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ وبالتالي فإن بعض الحجارة تَفْضُلُ على قلوب بعض البشر، ممن لم يؤمنوا بالله تعالى بعد أن عرفوا الحق، وسمعوا القرآن العظيم. مما يستوجب تعظيم كلام الله تعالى، والعناية به من كل وجه.

ثم يبين سبحانه وتعالى سبب وهدف ضرب تلك الأمثال للناس، والغاية منها، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن القصد من بتلك الأمثال المضروبة في القرآن ليتفكر فيها الإنسان. وقد أشار الله تعالى باسم الإشارة ﴿ وَتِلْكَ ﴾ لإفادة التعظيم، والتبجيل لأمثال القرآن المضروبة للناس، وذلك لقوة وأثر ما فيها من الوعظ والترغيب والترهيب، والحجج والبراهين المبينة للحق، والمبطلة للباطل

ثم يبين تبارك وتعالى أن المقصود والْمَعْنِيُ بذلك هو الإنسان، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ فإن المقصود بضرب الأمثال هو هذا الإنسان، الذي أنزل الله تعالى القرآن ليتدبره، ويعمل به. فنضرب تلك الأمثال للناس من أجل غاية التفكر فيها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فالمستهدف بها الإنسان لتوعيته، ليتأمل ويتدبر، وليتعقل بها، ولرفع الجهل عنه من خلال الأمثال التي تكشف له حقائق الأمور. فإن ضرب المثل هو للتعليم، ونقل المتعلم من الجهل إلى العلم، وإلى الفهم الصحيح الذي يرتقي به، ويصحح عبادته وفهمه وتفكيره، ويرتقي به إلى التعقل. وهو امتنان عظيم من الله تعالى على العباد بما ضربه من الأمثال المتنوعة في كتابه القرآن العظيم.

وقد أفادت دلالة: الضرب، ودلالة الأمثال ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ عمق البيان، بتقريب ما يُراد بيانه بأقرب صورة له، لتحاكيه بالحقائق وتفاصيلها. فإن الضرب يحمل معنى الوصف والبيان والتمثيل، بإيقاع وصف على وصف، بينهم قاسم أو قواسم مشتركه من التشابه والتماثل، للاستدلال به على

المراد بيانه وإعلانه وإعلامه للناس بأدق التمثيل له. كما يعزز قوة ضرب الأمثال في القرآن الكريم أنه من لدن الله عَزَّ وجل ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ فضارب المثل للناس هو الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهي في أقوى صورة، وأبرع بيان، فمن لم يهتد بها، ويذعن لها، فهو جاحد بلا ريب ولا شك.

وضرب المثل هو تقريب الصورة للحقيقة ورسمها في الأذهان من خلال حقيقة يعرفونها، ويقطعون بحقيقتها، لمعرفتهم التامة بها. وضرب المثل في القرآن الكريم يعطي الصورة المماثلة للحقيقة، مما يبين أهمية ضرب الأمثال في المواعظ والتعليم والإرشاد، فإنها مما يقرب المعنى والحال والصورة إلى الذهن، وليس هناك أبدع من أمثال كتاب الله تعالى، في ألفاظه ومعانيه، وبلاغته، وأثر دلالاته، وقوة مخاطبته للعقل، وإثارة الحس والنفس نحو دلالاته ومعانيه. اللهم انفعنا بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

وضرب الأمثال للناس هو ليحققوا بها في أنفسهم ما تتجلى به الحقيقة التي تُوصلهم إلى طاعة الله تعالى، وإلى ما ينفعهم، باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، والكفر بالشرك، والإيمان بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وفق ما شرع، وبينه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فمنزلة الأمثال التي يضربها الله تعالى للناس أنها تُجَلِّي الحقيقة، وتزيل عن الحق ما يُعتمه، من خلال مفهوم الأمثال المضروبة للناس، وما تُوصلهم إليه تلك الأمثال من الحقائق والمعاني في أدق بيان، وأوضح صورة، فيتعظوا بها ويعتبروا.

وبالتالي فإن الذي يدرك تلك الأمثال تمام الإدراك هم المفكرون الذين يريدون الحق، فيخرجون به من الجهل إلى العلم. وأما الذين لا ينتفعون بالأمثال فهم الجهلاء الذين لا يتفكرون، ولا يريدون إلا ما هم عليه من الباطل. وبالتالي فإن مَن عنده قابلية التعلم بالتواضع للحق، فإنه ينتفع بتلك الأمثال المضروبة للإنسان من الله تعالى. فهي في غاية ما يتحقق به الانتفاع. وفي هذا الأسلوب مدح واستثارة واستنهاض وتحضيض للإنسان بأن يُمْعِن النظر، ويتفكر ليكون من أهل الفكر والاتعاظ، وليس من الجاهلين الذين هم ضد التدبر والتفكر والتأمل. مما يبين رفعة منزلة التفكر والتأمل والاتعاظ. فإن في المواعظ والنصائح التي تحملها الأمثال المضروبة خير كثير، ونفع عظيم، فهي لأهل القلوب التي تسترفد العلم، وتقبض عليه، وتعمل به. وفي هذا تحفيز وترغيب للترفع عن السفه، والارتقاء بالعقل والتعقل والفهم والعمل والتطبيق، ووجوب إدراك الأمثال على حقيقتها وبيانها. كما فيه مدح وثناء على الأمثال المضروبة في القرآن الكريم، لما فيها من العلم الذي يرتقي بعقل الإنسان بدلاً أن يكون عقله خاوياً من العلم والحق.

وقد بين الله تبارك وتعالى الغاية من ضرب الأمثال للناس، بأنها لغاية التفكر فيها، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فالمستهدف بها الإنسان لتوعيته بالتأمل والتدبر، والتعقل، حتى يرفع الجهل عن نفسه، من خلال الأمثال التي تكشف له حقائق الأمور. كما تفيد الآية الكريمة التوبيخ لمن غلب عليه سفهه، وأفشل قوة نعمة عقله بنفسه. كما يفيد التوجيه الكريم لفت الانتباه إلى نعمة العقل في الفهم والتفكر والتعقل،

ووجوب مغالبة الشهوات والشبهات، وأن التفكر وسيلة لتحصيل المعرفة المؤدية إلى الحق والنفع بجميع أنواعه. وأن العقل وعاء العلم، وأنه قوة للإرادة نحو قبول الحق ولزومه في كل أمر، ومنه شأن الدين، القائم على طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم يختم الله تعالى سورة الحشر بذكر أسمائه وصفاته العظيمة، إجلالاً وتعظيماً، وبياناً للعباد بعظمة ربهم سبحانه وتعالى وجلالته التي من مظاهرها دلالات اسمائه وصفاته عَزَّ وجل. فقال تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هو الله ربكم وحده لا شريك له، الذي لا معبود بحق غيره ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيقرر توحيده، وإفراده بالعبادة، فهو المألوه الذي لا إله غيره عَزَّ في علاه. فبدأ مطلع البيان باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ لإفادة التعظيم والحصر بما سيأتي من بيان. بأنه الله وحده لا شريك له. ثم لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ذو الألوهية، الذي يجمع صفات الكما والجلال. ثم بيان وحدانيته عَزَّ وجل، بأن الله هو الإله الذي لا إله غيره. وقد تضمنت دلالة ﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نفي أُلوهية غير الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ ﴾ ثم قصر وحصر الألوهية له وحده لا شريك له تبارك وتعالى ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ هو فقط الإله المألوه، والرب لكل شيء. فلا معبود بحق غيره عَزَّ وجل، وأن غيره دونه، فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن من عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ في علاه.

وأفادت دلالة ﴿ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ حصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله يُعبد في الأرض ولا في السماء غيره تبارك وتعالى. وفي تَصَدُّر بيان التوحيد بقية الأسماء الحسنى والصفات العليا هو لإظهار أهمية التوحيد، وجلالة قدره. حيث قال تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فتَصَدَّر التوحيد بقية بيان الأسماء الحسنى والصفات العليا؛ لإظهار أهمية توحيد الله تعالى وجلالة قدره، بأن يُفْرَد بالألوهية والربوبية والعبادة، وبأسمائه وصفاته العظيمة الجليلة، وأن التوحيد أساس العلم والغاية والركيزة التي يعتمد عليها الدين. وأنه

عمود الإسلام وأساسه. والذي ينفي الشرك، ويقرر به توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وفي أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

ثم أخبر تبارك وتعالى بعد تقرير التوحيد بأنه ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ أي: العالم بما غاب عن خلقه من مخلوقاته التي لا تُعد ولا تُحصى، وما غاب عن بعضهم البعض؛ ومن ذلك ما تخفيه الضمائر والنفوس، وما تكنه الصدور. فلا يغيب ولا يستتر عليه شيء من الخلق أبداً. فلا ظُلْمَةٌ ولا سِترٌ يمنع علم الله تعالى، ويحول دونه. ثم ذكر عَزَّ وجل: علمه بالظواهر ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ المتضمنة في دلالتها ما يشاهده الخلق ويعاينونه بحواسهم المختلفة. مما يبين العلاقة الوطيدة والمتلازمة بين الإيمان بالغيب، والإيمان بالشهادة. فمن يؤمن بالشواهد من خلق الله تعالى وتدبيره فإنه يلزمه الإيمان بالغيب الذي دلت عليه شواهد قدرة الله تعالى، كإنبات الأرض بعد موتها، بل جميع الكون في حركته وفي ثبوته. وفي حركة ما تحرك منه، وثبوت ما هو ثابت منه، هو دليل على وجوب الإيمان بالغيب. بل قدم سبحانه وتعالى علم الغيب على علم الشهادة، لإظهار أهميته للمُخَاطَب. وفي الإيمان بذلك ما يغرس التقوى في المؤمن، ومراقبة الله تعالى في النفس. فتكون حياته بين الخوف والرجاء، وهما الأمران الجالبان للسعادة، والضابطان لسلوك الإنسان في كل وقت وحين. والطريق للهداية والاستقامة، ثم إلى جنة عرضها السماوات والأرض. ونسأل الله تعالى الجنة لنا ولجميع المسلمين بفضله ورحمته وتوفيقه.

ثم يقرر سبحانه وتعالى أنه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو وحده جَلَّ جلاله المتفرد بكمال الرحمة.

وبدأ مطلع البيان باسم الإشارة ﴿هُوَ﴾ لإفادة الحصر على أن كمال هذين الاسمين وما يتبعهما من الصفات بأنها له وحده عَزَّ وجل، فلا شريك له في اسمائه وصفاته، كما أنه لا شريك له في ألوهيته وربوبيته. وهما إسمان من أسماء لله تعالى، متضمنان لمعاني الرحمة الواسعة العظيمة، التي تستثير عند المؤمن جانب الرجاء، والأمل، والمحبة لله الرحمن الرحيم، الذي وصف وسَمَّى نفسه العظيمة الكريمة بذلك، بل وتدفع العبد أن يطمع فيما عنده سبحانه وتعالى من الرحمة، لأن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمٌ متضمنٌ لصفة الرحمة، وهذا يُقوي رجاء المؤمن في رحمته سبحانه وتعالى. فهو المتصف بالرحمة الواسعة. وهي صيغة دالة على سعة رحمته عَزَّ وجل، وشاملة لكل أنواع الرحمة، وأنها رحمة لكل شيء من عند الله الرحمن الرحيم.

ثم تلى اسم الرحمن اسمه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: الْمُوصِل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحمن باعتبار الوصف. والرحيم باعتبار الفعل، بإيصال رحمته إلى خلقه. ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهما اسمان متضمنان لصفة الرحمة، بل أعطى تعاقبها دلالة التوكيد، والمبالغة في الرحمة منه جَلَّ جلاله. مما يدل على كريم لطفه بعباده، فقد

وسعت رحمته كل شيء سبحانه وتعالى. ومن جليل رحمته إنزال القرآن رحمة للعالمين وإرسال المرسلين، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. كما قال عزَّ وجل في سورة الأنبياء ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فإن الغاية من بعثك أيها النبي بالرسالة إلى الناس هو من أجل أن نرحم الناس بما أرسلناك به. وقال تعالى عن القرآن العظيم في سورة الإسراء ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فهو شفاء عام دائم ومستمر، ليشمل هذا الشفاء الأمراض والأسقام والعلل، وكذلك لما في القلوب من أمراض الشك والنفاق والزيغ والضلال، وما يصيبها من الخوف والوساوس الشيطانية، وما يلحقها من الجهل بالحق، وغيرها مما قد يحدث للإنسان المؤمن ﴿ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ لما فيه من العلم الجالب للمنافع والمحقق للمصالح، والذي فيه صلاح الدين والدنيا وصلاح الآخرة، ولما في تلاوته من البركة، التي تُضفي الرحمة على المؤمن.

فمن رحمته تبارك وتعالى أن أكد وبين عَزَّ وجل أن القرآن رحمة، لما فيه من الهدى، والحق والخير والشفاء، والنور المبدد لظلام الجهل، وظلام الباطل، والذي يأخذ بمن تمسك به إلى سعادة الدارين، في الدنيا وفي الآخرة. وهذا يفيد تربوياً ودعوياً وقيادياً في جميع مجالات الحياة أهمية الرحمة. فعلى عظمة ربنا وقوة سلطانه إلا أنه رحمن رحيم. ونستفيد من ذلك أهمية التعامل في مجال إدارة الغير بأن لا ينفرد أثناء التعامل بالحزم دون الرحمة، بل الجمع بين قوة التطبيق والحزم فيه، وبين الرحمة بالغير. ليتحقق القبول والأداء، وهو التوازن بين الترغيب والترهيب، الذي يحقق التوازن النفسي والتوازن في التفاعل والتعامل.

ثم يستمر البيان في ذكر عظمته سبحانه وتعالى في اسمائه وصفاته الدالة على جلالته وقدسيته، وعظمته جَلَّ في علاه. فقال تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ فلما أن مقام التوحيد مقام عظيم تكرر قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وكذلك لما أن المقام مقام جليل ومهيب، تكرر البدء في ذكر أسماء الله تعالى وصفاته الجليلة بالضمير ﴿ هُوَ ﴾ لبيان مقام الاهتمام بصفة الألوهية التي ابتدأ بها البيان مرة أخرى، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ ذو الألوهية، الذي يجمع صفات الكما والجلال. ثم بيان وحدانيته عَزَّ وجل، بأن ربكم الله، الإله الذي لا إله غيره. ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فيقرر توحيده، وإفراده بالعبادة، فهو المألوه الذي لا إله غيره عزَّ في علاه.

فبدأ مطلع البيان باسم الإشارة ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ لإفادة التعظيم والتفخيم والحصر بما سيأتي من بيان، بأن له وحده لا شريك له ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ وتضمنت دلالة ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي ألوهية غير الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ ﴾ ثم قصر الألوهية له تبارك وتعالى ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فإن ربكم هو فقط الإله المألوه، والرب لكل شيء. فلا معبود بحق غيره عَزَّ وجل، وأن غيره دونه، فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى. فَتُعَلِّم العبادَ بأن العبادة لا تُصرف إلا له عَزَّ وجل، وبالتالي لا تصلح العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن من صرفها لغيره فقد كفر. فعليكم أيها الناس بعبادة ربكم وحده لا شريك له.

مما يفيد أن من عبد غير الله تعالى، فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل. وأفادت دلالة ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ حصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله يُعبد في الأرض ولا في السماء إلا هو تبارك وتعالى. فمن عبد غيره فقد كفر. وفي تَصَدُّر التوحيد لبيان وإظهار بقية الأسماء الحسنى والصفات العليا ما يفيد إظهار أهمية التوحيد، وجلالة قدره. حيث قال تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فَتَصَدَّر التوحيد بقية بيان الأسماء الحسنى والصفات العليا؛ لإظهار أهمية توحيد الله تعالى وجلالة قدره، بأن يُفْرَد سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية، وبأسمائه وصفاته العظيمة الجليلة، وأن التوحيد أساس العلم والغاية والركيزة التي يعتمد عليها الدين. وعمود الإسلام وأساسه. والذي ينفي الشرك، ويقرر به توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وفي أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

ثم ذكر تبارك وتعالى من أسمائه وصفاته ﴿ٱلْمَلِكُ ﴾ الذي له كمال وتمام الملك للكون كله، والذي خلق جمع أصناف المملوكات، فهي تحت سلطانه وكمال إرادته، ولا يخرج شيء من ملكه عن سلطانه وإرادته. مما يعلم العباد أنهم وما يملكون هم مُلك لله تعالى، وأنه هو الذي مكنهم مما يملكون، ولو شاء لنزع منهم ما يشاء مما يملكون. فعليهم أن يذعنوا لربهم، ويطيعوا ويتبعوه رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر تبارك وتعالى اسمه المتضمن لصفة الكمال، فقال تعالى ﴿ٱلْقُدُّوسُ ﴾ الْمُنَزَّه والْمُقَدَّس والمعظم والممجد، والْمُطَهَّر من النقص والعيوب، ومن الأنداد، والزوج، والولد. والمعظم في أوصافه وتدبيره وسلطانه. بما يستوجب من العباد تنزيه ربهم سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق به عَزَّ في علاه. وأن يدركوا عظمة ربهم، وجلالته.

ثم ذكر عَزَّ وجل اسمه ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ الذي يسلم خلقه من ظلمه. وهو يعني استيفاء كمال السلامة من كل عيب ونقص. وبما يفيد الانفراد بكمال السلام، بكل ما تحمله من الدلالات العظيمة. نفياً لنقصها، وإثباتاً لكمالها. فهو المعظم في أوصافه وتدبيره وسلطانه عَزَّ وجل. مما يعلم المسلم أن يطلب السلام والسلامة من مالكها سبحانه وتعالى. كما ورد عن ثوبان رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته: استغفر ثلاثاً، وقال (اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام)[١] فهو تقرير بأن الله تعالى هو السلام، وهو المانح للسلام والسلامة.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن من اسمائه وكمال صفاته أنه ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ الذي يأمن خلقه من ظلمه، فقد وهبهم الأمن من ظلمه لهم. وأنه المصدق لجميع رُسُلِه بالحجج والبينات والبراهين، والمصدق للمؤمنين على إيمانهم، وتوحيدهم له عَزَّ وجل. وأنه هو الذي أفرد ووحد نفسه تبارك وتعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة آل عمران ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ ذكره الزجاج[٢] مما يتطلب من العباد محبتهم لربهم على عدله، وعدم ظلمهم، وأنه يُصَدِّقُ لهم إيمانهم. بل كثيراً ما يخاطبهم بنعمة الإيمان، ويزكي إيمانهم.

ثم يذكر تبارك وتعالى اسمه ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الرقيب والشهيد على عباده، وعلى ما يكون منهم. والرقيب عليهم، والمسيطر على كل شيء من خلقه، فلا يكون شيء إلا بعد إذنه ومشيئته. مما يعلم العباد سؤال ربهم ما يريدون من الخير، وأن يدفع عنهم ما يكرهون، فإنه عَزَّ وجل هو المهيمن على ملكوته كله.

ثم يذكر تبارك وتعالى اسمه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل، وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. وبما يعلم أن العزة لله تعالى وحده لا شريك له، كما قال تعالى في سورة النساء ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فجميع أنواع العزة لله تعالى. مما يفيد أن العزة ملك لله تعالى، وأن على من يطلبها ويرجوها، فهي من عند الله تعالى، حيث يعز من يشاء، ويذل من يشاء. فلا تبتغونها عند من لا يملكها، بل كل أحد مفتقر إليها. وأن على من يطلبها ويرجوها، فإنها في اتباع دين الله تعالى، وذلك بطاعته واتباع شرعه. لتحصل لهم العزة في الدنيا والآخرة.

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٥٩١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٩/٧)

ثم يذكر تبارك وتعالى اسمه ﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ أي: العظيم، والقاهر لما يريد، فلا يتعزز عليه شيء أبداً، فقد أذعن له سائر الخلق. وهو الذي يجبر خلقه بقوته وسلطانه على ما يشاء. فلا يتجبر عليه أحد، لأنه هو الجبار لا غيره سبحانه وتعالى. فيقصم من ينازعه ذلك، ويذله ويهينه، وكذلك تأتي بمعنى: الجبر، فهو الذي يجبر خلقه برحمته، ويغني الفقير والكسير.

ثم يذكر تبارك وتعالى اسمه ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ صاحب العظمة عن كل ما لا يليق به عَزَّ وجل، فتعاظم عن النقص، وعن الظلم، وهو الذي يقود غيره، لأنه الملك المالك المتعالي عن صفات المخلوقين. صاحب الكبرياء والعظمة، وهو صاحب القهر والعلو، وغيره ذليل له، ومقهور لإرادته سبحانه وتعالى. والكبر لله تعالى مدح، ولعباده ذم. وهو الذي يقصم من نازعه الكبرياء. مما يعلم المؤمن التواضع لله تعالى، وألا يتكبر، فإن المتكبر هو الله سبحانه وتعالى، والعباد عبيد له جَلَّ جلاله.

وبعد أن أثبت الله تعالى عظمته في اسمائه وصفاته، يختم جَلَّ جلاله الآية الكريمة بتنزيه نفسه العظيمة الجليلة عن شرك المشركين، فقال عَزَّ وجل ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فَتَنَزَّه وتَمَجَّدَ وتقدس الله تعالى بذاته وصفاته عن شرك المشركين، وضلال المضلين. مما يشركون به من الأصنام والانداد، إذ كيف يكون المخلوق شريكاً للخالق، والمربوب شريكاً لربه؟ فتنزه سبحانه وتعالى عن الشريك والشركاء. وفي هذا التنزيه من الخالق العظيم ما يدل ويؤكد بطلان الشرك من أصله، وأنه من غواية الشيطان للإنسان، كما يدل على انحدار عقل من اتخذ مع الله تعالى شريكاً. فتنزه وتعالى الله ربكم عما أشرك به المشركون من الشرك. وفي هذا إبطال وكفر كل من أشرك مع الله تعالى غيره من خلقه. فينزه الله سبحانه وتعالى ذاته عن الشريك في ربوبيته، وألوهيته، وعبوديته. فلا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم يستمر البيان في ذكر عظمته سبحانه وتعالى في اسمائه وصفاته الدالة على جلالته وقدسيته، وعظمته جَلَّ في علاه، ليختم الله سبحانه وتعالى سورة الحشر بهذه الآية العظيمة. فقال تبارك وتعالى﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تكرر البدء في ذكر أسماء الله تعالى وصفاته الجليلة بالضمير ﴿ هُوَ ﴾ لبيان مقام الاهتمام بصفة الألوهية التي ابتدأ بها البيان مرة أخرى، لأن المقام مقام تعظيم وإجلال، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ ذو الألوهية، الذي يجمع صفات الكما والجلال. بما يُبين ويُظهر وحدانيته عَزَّ وجل، بأن الله هو الإله الذي لا إله غيره. ثم ألحق بها أنه سبحانه وتعالى هو ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ﴾ الذي ابتدأ الخلق بالاختراع له، على غير مثال سابق له. قال الخطابي رحمه

الله تعالى: هو المبتدئ للخلق، المخترع له[١] فهو سبحانه وتعالى الذي أنشأ جميع الخلق من العدم، فلم يكن شيئاً قبل الخلق إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من أسمائه الحسنى اسم ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الذي برأ الخلق، فأوجدهم بقدرته على الهيئة التي خلقهم عليها. ثم أعقبه باسم ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الذي أنشأ خلقه بالصورة والأشكال والكيفية التي عليها الخلق جميعاً، ومنهم الإنسان، الذي خلقه في أحسن تقويم. بما يفيد أنه عَزَّ وجل هو الذي أبدع خلقه ابتداء على الصورة التي عليها أنواع الخلق في الكون كله.

ثم ذكر عَزَّ وجل بعد ذلك أن ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فربكم هو المتفرد بالأسماء الممدوحة بالكمال والثناء والجلال. والكاملة في الْحُسن والمعاني. بما يفيد ويدل على جلالة أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، وعظمتها ونفاستها، وعظيم دلالة كل اسم منها. ولذلك أمر عباده أن يدعوه بها، كما في سورة الأعراف ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ ومن قوة فضلها، ورفعة منزلتها أن من حفظها دخل الجنة، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال (لله تسعة وتسعون اسما ـ مائة إلا واحداً ـ لا يحفظها أحدُ إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر)[٢] بل ومن حُسنها ودقة معانيها أن كل اسم يحمل أعظم المعاني والصفات التي اتصف بها ربنا تبارك وتعالى.

ثم أوضح وبين سبحانه وتعالى أنه يُسَبِّحُ له جميع من في السماوات والأرض ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فشملت دلالة ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ جميع ما ارتفع، مما نشاهده، ومما لا نشاهده ونعاينه، من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع من خلقه. وكذلك شمل التسبيح الأرض كما في قوله عَزَّ وجل ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: جميع من بداخلها، ومن عليها من مخلوقات، كالجبال والأشجار والدواب، والإنسان والطير. كما قال تعالى في سورة النور ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وكذلك الطير تسبح لربها حتى وهي باسطت أجنحتها، وحين رفرفتها بأجنحتها، انقباضاً وبسطاً

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٩/٧)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١٧٤/٤) برقم (٦٤١٠)

وإطلاقاً، فإن الطير وهو منشغل بتوازنه في الهواء إلا أنه لم يترك ما أمره الله تعالى به من العبادة، فإنه عندما يصف الطائر جناحيه حال طيرانه فإنه يؤدي تسبيحه وصلاته، وذلك في عبادة لربه تبارك وتعالى بما ألهمه وأرشده إليه عَزَّ وجل. مما يثير التساؤل: أليس لكم فيهم أسوة بالانقياد والطاعة والحرص؟ فكيف يجب أن يكون حال الإنسان إذاً؟ وقد سخر له ربه سبحانه وتعالى ما في السماوات والأرض. فإنه أوجب وأدعى ليحصل منه كمال الانقياد لربه عَزَّ وجل. فإن كل صنف من مخلوقاته سبحانه وتعالى قد عرف ما يخصه من الصلاة والتسبيح الذي يناسب حال المخلوق وتركيبه الذي خلقه الله تعالى عليه، من الثبات أو الحركة.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية وهذه السورة العظيمة باسمين من أسمائه التي تحمل صفات العظمة والجلال. فقال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل، وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. والاسم والصفة الثانية: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، الذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن من معاني الحكيم أنه يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق الله تعالى هو على أعلى درجات الإحكام والإتقان. وأنه وفق حكمته، وحكمة تقديره وتدبيره جَلَّ شأنه. كما يفيد ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته وعدله. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى. كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه وأهل دينه. لأنه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم، لأنه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فلا عزة لأحد. بل إن العزة والحكمة له وحده لا شريك له، اسماً وصفة وقدرة.

وقد تضمن قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صفة المبالغة، فإنه عَزَّ وجل العزيز المنفرد بكمال العزة والحكمة. إذ حصر سبحانه وتعالى كمال العزة والحكمة له جَلَّ في علاه. حيث أفادت بُنية كلمتي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وحكمته. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب على عباده الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلم بها. وكذلك يستوجب على عباده الرغبة في رحمته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع كتابه القرآن العظيم، وشرعه الحكيم. وسؤاله فيما يطلبون ويرجون، وفي دفع ما يخافون ويهابون. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الحشر. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.